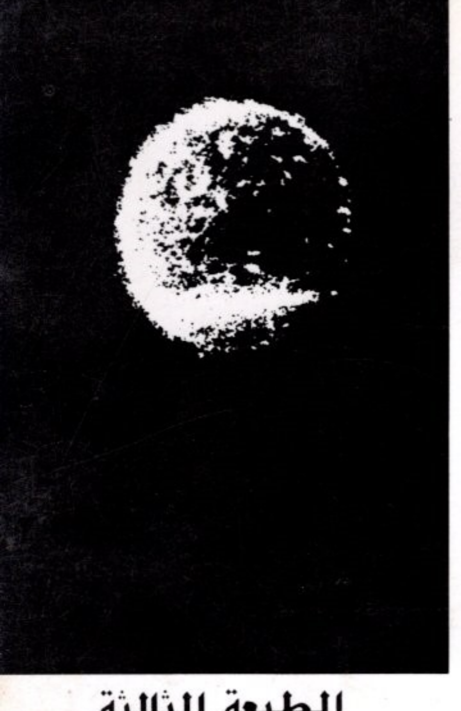


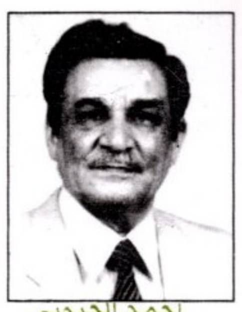
أحمد الحبوبي

ليلة الهرير في قصر النهاية

الطبعة الثالثة



ادد

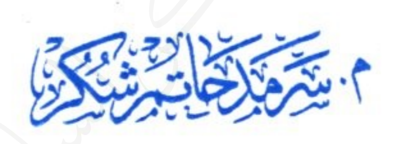


احمد الحبوبي

- ولد سنة 1931 في مدينة النجف الأشرف.
- والده السيد هادي، وعمه العلامة المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي الذي قاد المجاهدين ضد الإنجليز عند دخولهم العراق سنة 1914 واستشهد بعد معركة الشعيبة سنة 1915 .
- أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في النجف، ثم أنهى كلية الحقوق سنة 1955 ومارس المحاماة.
- عمل في السياسة منذ نعومة أظفاره في صفوف حزب الاستقلال.
- شارك في كل الأحداث السياسية الهامة التي مرت بالعراق ابتداءاً من وثبة سنة 1948 (ضد معاهدة بورتسموث) وانتفاضة سنة 1952 وحلف بغداد سنة 1955 والعدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 واعتقل في سجون العهد المباد في بغداد والنجف وكربلاء.
- كان مسؤول حزب الاستقلال في النجف وممثله في جبهة الاتحاد الوطني (الجبهة الوطنية) التي شكلت سنة 1957 من جميع الأحزاب الوطنية.
- كان مقرر لجنة الجبهة الوطنية في النجف وعضو ارتباط مع بغداد.
- بعد ثورة 14 تموز سنة 1958 وحصول الخلاف بين أطراف الجبهة اعتقل في 1958/9/21 في معسكر أبو غريب مع مجموعة من رفاقه بتدبير من بعض الفصائل الشيوعية قرابة الستة أشهر.

ليلة الهرير

في قصر النهاية



أحمد الحبوبي

❁ احمد الحبوبي
❁ ليلة الهرير في قصر النهاية
❁ الطبعة الثالثة 2003
الطبعة الثانية 2001
الطبعة الاولى 1999

❁ تصميم الغلاف: طالب الداوود

شركة ادد للطباعة بغداد هـ
7760636

نهار يوم 20 / 1/ 1970

كان الضباب كثيفاً يحجب قرص الشمس صبيحة ذلك اليوم فيشيع في النفس الضيق والانقباض. فقد كان واطئاً، مخيماً على أسطح المنازل مطبقاً على الشوارع تتعذر معه الرؤية، ويلفح الوجوه بنداه القارص.

وصلت إلى (القشلة) مقر المحاكم حوالي الساعة التاسعة كعادتي كل صباح لمزاولة مهنتي (المحاماة)، وقد اعتاد الزملاء المحامون أن يتواجدوا في غرفة المحامين قبل الذهاب إلى أعمالهم، ويدور في هذه الغرفة مختلف الأحاديث التي تهم المهنة والتي لا تهمها وأغلبها أحاديث سياسية تخص العراق والعالم وغرفة المحامين أو من يؤمها من الناس (المراجعين) تتمتع بجو ديمقراطي فالحديث يدور فيها دون خوف أو وجل فللزمالة حقوقها واعتباراتها مهما اختلفت العقائد، وحلقة هنا وحلقة هناك ثم يتفرق الزملاء فيذهب كل إلى عمله.

وجدت غرفة المحامين خالية أو تكاد على خلاف العادة، لم يشجعني خلوها على الجلوس وانتظار قدوم الزملاء، حَيّيتُ (عواد) المسؤول عن الغرفة وتركت (القشلة) فلم يكن لي في ذلك اليوم دعوى أباشرها وإنما جئت إلى المحاكم بحكم العادة ثم

تركت لساقيَّ العنان تسيران بي حيثما اتجها لا على التعيين فليس أمتع من رياضة المشي بدون هدف فهي تفيد الجسم ويستريح خلالها المخ والأعصاب، ورحت أجوب الشوارع، لم أتفرس في وجوه الناس فقد كنت مشغولاً عنهم بما أكابد من ضيق في صدري لم أعرف كنهه، ولم أفق من سرحاني إلا على صدمة من كتف مسرع كادت أن تلقي بي على الأرض.. ولم يعتذر الرجل قال لي (فتح عيونك.. ليش نايم). وجدت نفسي أني قرب (الشورجة)[1] حدثتني نفسي أن أزور صديقاً لي يملك محلاً تجارياً فيها، أشرب القهوة وأسمع أخباراً سياسية فالتجار من أكثر طبقات المجتمع اهتماماً بالسياسة لما لها من تأثير كبير في السوق وشؤونه التجارية.. أدنيت فنجان القهوة من فمي وإذا بي أسمع من يسأل "هل سمعتم بالمؤامرة التي حدثت البارحة ليلاً" أنزلت فنجان القهوة دون أن أرتشف منه والتفت نحو السائل (وهو تاجر من الشورجة) متسائلاً "أية مؤامرة؟" أجاب الرجل وقد بان عليه الارتباك "لا أعرف.. لكنني سمعت الناس يتحدثون.. ويقولون إن مؤامرة حصلت البارحة، وفشلت والحكومة مسكت المتآمرين".. وسكت الرجل.. كنا أربعة أشخاص في هذا المحل التجاري، صاحب المحل وأنا والسائل وتاجر آخر ما أن سمع

1. سوق تجاري في بغداد

باسم المؤامرة حتى أستأذن خارجاً، وران صمت قطعه صديقي صاحب المحل بقوله "الله يستر".

استأذنت وخرجت إلى الشارع من جديد أمشي أتفحص وجوه الناس علّني أقرأ فيها أخباراً عن هذه المؤامرة، فوجوه الناس جرائد متنقلة تقرأ فيها الأخبار السارة وغير السارة..

رأيت الخوف مرتسماً على الوجوه، أو هكذا تصورت فالخوف لم يكن جديداً على أهل العراق فقد عاشوا به ومعه منذ أن عرف للعراق تاريخ.

لا أدري كم مشيت وها أنا في سيارتي والساعة تقترب من الثانية ظهراً وعزمت أن أذهب إلى البيت ولم أعرج على غرفة المحامين لمعرفة المزيد عن هذه المؤامرة وكأن هاتفاً منعني من ذلك فتحت راديو السيارة على نشرة أخبار الساعة الثانية وإذا بصوت محمد سعيد الصحاف (مدير الإذاعة والتلفزيون) يحيي المستمعين الكرام فتأكد لدي أن تساءل رجل الشورجة في محله، فها هو الصحاف بنفسه يفتتح الأخبار على غير المعتاد، إذاً لا بد أن يكون الأمر جداً أبطأت السير أصخت السمع وجاء صوت الصحاف الجهوري يصرخ في المذياع (أيها المواطنون.. إن مؤامرة خسيسة قد دبرتها الإمبريالية الأمريكية والرجعية (الإيرانية) مع الرجعية المحلية للإطاحة بالثورة ومكتسباتها..

لتعيد العراق إلى حظيرة الاستعمار الأمريكي ونفوذه ومخططاته . . ولكن الثورة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي كانت للمؤامرة الدنيئة بالمرصاد فأحبطتها في مهدها وان الرؤوس المدبرة الخائنة ستنال جزاءها الصارم . .)

إلى آخر المعزوفة ، وسكت الصحاف ثم أخذت الإذاعة تبث موسيقى عسكرية . . ومعنى هذا أن أنباء هامة قادمة بعد حين ولم يطل انتظاري فقد طلع صوت الصحاف من جديد ليعلن عن تشكيل (المحكمة الثورية الخاصة برئاسة طه الجزراوي"[1] وعضوية كل من ناظم كزار[2] وعلي رضا[3] ، ثم تابع السيد الصحاف يعدد صلاحيات المحكمة الخاصة ، فمن صلاحيتها إصدار الأحكام وتنفيذها فوراً من غير طعن خلافاً لأي شرع أو قانون . . فالمحكمة تحقق ثم تحكم ثم تنفذ الحكم على الفور حتى دون الحصول على توقيع رئيس الجمهورية (فهذا إجراء شكلي يمكن الحصول عليه بعد التنفيذ) . . وصلت إلى البيت والهواجس تتقاذفني والشكوك تتنابني عن هذه المؤامرة . . فالراديو لم يفصح عن أسماء

1 ـ أصبح بعد ذلك وزيراً للصناعة وهو الآن نائب رئيس الجمهورية

2 ـ منح رتبة لواء وعين مديراً للأمن العام ، وقتل في عام 1973 لاتهامه بتدبير مؤامرة ضد الشعب .

3 ـ يعني بارز .

المشتركين فيها، ولم يذكر غير العموميات ورحت أتساءل: كم من بريئ سيلتف حبل المشنقة حول رقبته كم من بريئ ستأكله هذه المؤامرة، فهذا هو اليوم الموعود للتنفيس عن الأحقاد وتصفية الخصوم. . إن كل إنسان ومن أي لون يمكن أن يتهم في هذه (المؤامرة) التي لم تتضح معالمها بعد.

دخلت البيت وأنا واجم مشغول البال وعافت نفسي الطعام فأويت إلى (القيلولة) كعادتي بعد الظهر فجافاني النوم، وبقيت محدقاً في سقف الغرفة، وتركت لفكري العنان مستبشعاً هول ما قد يحدث، فأنا أعرف دموية القائمين على الأمر. . تركت الفراش حوالي الساعة الرابعة والنصف بعد أن أتعبني التفكير. . وقررت أن آخذ ابني الصغير (سنان) إلى الطبيب لإعطائه الجرعة الثالثة من لقاح شلل الأطفال، فقد كان هذا اليوم موعدها ورافقتني زوجتي. . وبعدها عدت إلى البيت حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً ورحت أتنقل من غرفة إلى غرفة دون أن يستقر لي مقام وأنا بكامل ملابسي الخاصة بعد أن سمعت وأنا في طريقي إلى البيت مدير الإذاعة يعلن عن أسماء أول وجبة (من الخونة المتآمرين) قد أدينت من قبل المحكمة ونفذ فيها حكم الإعدام وفيهم اسم كل من رشيد عبد المحسن الجنابي[1] وصالح

1. ضابط سابق

مهدي السامرائي[1] ولم أعرف أشخاص باقي الوجبة التي بلغ عددها ثمانية أو سبعة، بقيت في الدار في حالة من القلق والضيق حتى تجاوزت الساعة السابعة والنصف تحدثت تليفونياً إلى الصديق الأستاذ غالب العلوش فقد كنت بحاجة إلى سماع صوت غير صوتي واعرف شيئاً عن المؤامرة غير ما أذيع عنها من خلال الراديو فأنا ومنذ الصباح لا أتحدث إلا مع نفسي فأخبرني الأخ غالب إن والده (المرحوم عبد الجبار العلوش) قد وصل من المسيب قبل ساعة ويبلغني تحياته وهو موجود عنده في البيت فراودتني رغبة زيارته والسلام عليه وقضاء بعض الوقت معه، فقلت له. أنا قادم إليكم الساعة لأسلم على الوالد فرحب بي وقال (إنّا منتظرون).. وما أن وضعت سماعة التلفون حتى رأيت شقيقتي (أم إحسان) تقف أمامي وتعترض طريقي فقد سمعت الحديث وعلمت بنية خروجي قائلة: (لا تخرج من البيت والدنيا مطر وخطر).. فضحكت في وجهها ومددت يدي لأزيحها من طريقي فتشبثت بمكانها وأصرت على منعي من الخروج، فقلت لها بلطف (أني أشعر بضيق أريد أن أقضي بعض الوقت مع الأخ غالب ووالده للتنفيس..) فلما رأت إصراري على الخروج راحت تتعلل بالجو البارد المطير، وأمام تصميمي أفسحت لي

1ـ ضابط سابق

الطريق وهي كسيرة مغلوبة وظلت تشيعني إلى أن خرجت بسيارتي من الكراج فقالت بصوت عالٍ (بس لا تتأخر) قالتها بنبرة رجاء واستعطاف، تذكرت عبارتها حينما لفني ظلام الزنزانة في تلك الليلة وضحكت في سري.

سمعت وأنا في طريقي إلى بيت الأخ غالب نبأ تنفيذ أحكام الإعدام في وجبة جديدة ذكر راديو سيارتي أسماءهم وكان من ضمنها اسم المرحوم جابر حسن حداد[1] فحزنت حزناً شديداً إذ تربطني به صداقة ورفقة، ولكني دهشت إذ وجدته محشوراً مع أسماء لا تربطه بهم رابطة عقيدة أو مبدأ أو حتى معرفة شخصية، إذ كيف يتسنى له التعاون مع عناصر (متورطة) في مؤامرة أمريكية- إيرانية وهو القومي المتطرف، المعتز بإسلامه وعروبته. ورحت أفكر في عائلته وأولاده حتى وصلت إلى دار الأخ غالب في المنصور فوجدت المرحوم والده وأخاه الدكتور سعد العلوش والأستاذ عبد الكريم الدجيلي جالسين في غرفة الضيوف والوجوم بادٍ على وجوههم، سألتهم عن الأخبار أجاب الأخ غالب (أن ليس عندنا أكثر مما نسمع من الراديو) قلت إنني

---

1 - ضابط قومي متحمس اشترك في اغلب المحاولات الانقلابية، كان محافظاً لمحافظة كربلاء عند مجيء حكم البعث 17/ 7/ 68 فاستقال رافضاً التعاون. قتل بالمدي والسكاكين في قصر النهاية

سمعت وأنا في طريقي إليكم خبر إعدام الوجبة الثانية وفيها المرحوم جابر حسن حداد، فقالوا: نعم سمعنا، وأخذنا الحديث بشؤون المؤامرة وإبعادها والأسماء التي أُعلنت، وإذا بصوت الأخ نجم السعدون يسبقه من الباب الخارجي ويسلم ويرحب كعادته المحببة، وما أن أهلَّ علينا ولمحني حتى صاح (هذا أبو غسان هنا يا مرحبا. . يا مرحبا) ثم قال قبل أن يجلس: هل سمعتم بخبر الأخ جابر حسن حداد؟ فأجبناه: نعم سمعنا، فراح يتأسف على إعدامه أسفاً شديداً ويترحم على روحه والألم باد على وجهه وشاركناه أسفه وترحمنا جميعاً على روحه لمعرفتنا بنظافة الرجل وحسن اتجاهه وصدق وطنيته وقوميته واستبعاد تورطه بعمل ما مع أمريكا وإيران، وهنا سألت عن الدكتور نظام عارف الذي أعدم مع الوجبة الثانية وسر وجوده وهو (تركماني) متعصب، وهل يعني أن لتركيا يداً في المؤامرة هي الأخرى؟ وتشعب الحديث وبينا نحن كذلك إذا بجرس الباب يرن. . فقام الأخ غالب ليعرف من الطارق. . غاب بعض الوقت ثم عاد ووقف بباب الغرفة وصاح بصوت مرتعش. . أبو غسان. . أبو غسان انتبهنا لاضطرابه وحشرجة صوته فأشار إليّ بيده بمعنى (تعال. . تعال) كان فمه مفتوحاً ولكن صوته قد انحبس والاضطراب باد عليه. . فقمت مسرعاً مأخوذاً بمنظره غير

الطبيعي أجبته (نعم أبو زينب اشبيك)[1] بلع ريقه وتمالك نفسه وقال متلعثماً (اكو جماعة بالباب يردوك)[2] فسألته (منو يريدني)[3] أجاب، بعد أن شعر بقلق الجالسين في الغرفة (ماكو شي جماعة يردوك شوفهم واقفين بالباب) عدت لمكاني لأخذ معطفي، وشعر الجالسون بالدار أن هناك شيئاً غير طبيعي يجري بالدار، وهنا انبرى المرحوم الأستاذ عبد الكريم الدجيلي قائلاً (أجي وياك أبو غسان)[4] فالتفت إليه وشكرته وابتسمت امتناناً له وخرجت مع الأخ غالب إلى الباب الخارجي، وإذا بثلاثة أشخاص يرتدون الملابس العسكرية يقفون في حديقة الدار، فبادرني أحدهم سائلاً (أنت الأستاذ؟) أجبته (نعم)فسأل (هل هذه السيارة البيجو الواقفة بالباب سيارتك؟) أجبته (نعم) فقال (اتفضل معنا أستاذ) وأشار إلى سيارة نجدة واقفة بباب الدار، كان الذي يسأل ضابط شرطة برتبة ملازم والثاني مفوض شرطة والثالث من أفراد الشرطة يحمل الأولان مسدسين ويحمل الشرطي رِشاشة، وهنا تدخل الأخ غالب وسأل مستفسراً (العلّ

1 - ما بك؟

2 - توجد جماعة بالباب يطلبونك.

3 - من يريدني؟

4 - هل آتي معك؟

في الأمر غلط يا إخوان) فأجابه الضابط (ماكو كل غلط معنا رقم سيارته) وأخرج من جيبه ورقة قرأ رقم سيارتي واسمي ثم أضاف مشيراً للسيارة ولي (هذه السيارة وهذا هو) وهنا قلت له (أنا مستعد أيها الأخ تفضلوا آني جاي وياكم) ثم التفت للأخ غالب وودعته بابتسامة مطمئنة وقلت له : تصبح على خير فلم يرد وتقدم المفوض ففتح باب سيارة النجدة الخلفي وقال : (تفضل من هنا بيك) فحدجته بنظرة فقد استغربت كلمة بيك ، وهل يقصد بها السخرية أم الأحترام وركب بجانبي وركب الشرطي من الجانب الآخر وصرت محصور بينهما ثم ركب الضابط في الأمام وقال للسائق الذي ظل في السيارة (إمشي) ثم تناول الضابط آلة كانت موضوعة أمامه وكأنها آلة مكرفون وأخذ يردد (هلو هلو سيدي أنا رقم كذا . . إن الشخص المطلوب معنا فأين نتجه به) فسمعت صوتاً غير واضح يقول شيئاً لم أتبينه ، فإذا بالسيارة تتجه نحو جسر الخر فعلمت أنهم ذاهبون بي إلى قصر النهاية فهذا هو طريقه ، فعرفت خطورة مصيري ، واستعذت بالله وفوضته أمري ، ووجدت راحة نفسية غريبة لا يعرفها إلا مَن مر عليه مثل ما مرّ عليَّ ، فقد أنزل الله سكينته ، إن الأيمان الصادق العميق يمنح الإنسان في مثل هذه الظروف العصيبة قوة وصلابة واحتمالاً قلما يجدها في ظرف طبيعي ، وعندما تقرأ في التاريخ

(عن أساطير) من واجهوا الموت بشجاعة ورجولة إنما هؤلاء كانوا بصورة وبأخرى مؤمنين إيماناً عميقاً بقضية أو مبدأ يهون دونهما الموت كنت أفكر بهذا ومثله والسيارة تتجه بنا نحو قصر النهاية دون أن أشعر بسيرها، وأفقت على صوت يمزق السكون الموحش في وسط غابة باسقة (قف) فتسمرت السيارة بمكانها وارتج كلُّ مَن فيها، فنظرت إلى الخارج من خلف الزجاج فتبينت وسط ضباب كثيف مجموعة بنادق مشرعة وهي تتجه نحونا ببطء، وإذا بصوت يصرخ (أعط كلمة السر) وهنا أنزل الضابط زجاج السيارة ونطق بكلمة لم اتبينها، فأجابه الصوت (تقدم) فتحركت السيارة وسط أشجار تمتد على جانبي طريق مسفلت، وما أن سارت بضعة أمتار إذ بشخص يرتدي البزة العسكرية يعترض طريق السيارة ورأيت تقاسيم وجهه بوضوح على مصباح السيارة، يرفع يده اليمنى بإشارة (قف) فوقفت السيارة مرة أخرى، فقلت في نفسي (ثم ماذا) بعد كلمة السر ومن هذا وما يصنع هنا، تفرست في ملامحه فوجدته شاباً يحمل رتبة ملازم أول يضع على عينيه نظارة طبية سميكة، وتبدو على ملامحه أنه ليس ضابطاً حربياً وإنما ضابط احتياط ممن منحهم الحزب رتبة عسكرية، تقدم نحونا ثم فتح الباب الأمامي وطلب من الضابط أن يفسح له مكاناً وما أن ركب وأغلق السيارة بيده، حتى التفت

إلى الخلف حيث أجلس وأخذ يصيح في وجهي (ولك أنت منو)[1] لم أجبه فصاح قائلاً (منو هذا المجرم المتآمر) وما انتظر جواباً على سؤاله بل أخذ يلوح بيده في وجهي ويصرخ بأعلى صوته (شوف انته ما راح تاخذ أكثر من ربع ساعة وتنتهي .. مجرم) فلم أجبه كما لم يجبه أحد من ركاب السيارة، فقلت في سري الحمد لله ربع ساعة ليست كثيرة ثم الخلاص من أمثال هذا المتهور المجنون، وهنا وقفت السيارة أمام الباب الرئيسية لقصر النهاية، وترجل الضابط المتهور أولاً وشعرت أنني قد أهنته عندما لم أبح له باسمي وقد شاركني حراسي أيضاً باحتقاره حينما لم يجيبوه واحترموا صمتي وتركوه يصرخ مهتاجاً كالثور، فتح الضابط باب السيارة قائلاً (تفضل أستاذ) نزلت من السيارة فوجدتني محاطاً بعدد كبير من الشباب المسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة كالرشاشات والمسدسات بأشكال وأحجام متنوعة، ونظرت للوجوه أتفحصها، فما وجدت غير التقطيب والاكفهرار، كأن هذه الوجوه الشابة النظرة قد شاخت وتغضنت وشردت منها الابتسامة والنضارة واستبشعت الأمر متسائلاً في سري كيف تحول هؤلاء الشباب إلى شيوخ؟ كيف ضاعت من وجوههم الابتسامة والنضارة والحياة؟ ومن المسؤول عن

1 ـ ولك كلمة تقال للتقليل من شأن المخاطب... من أنت؟

ضياعها؟ كيف تحول هؤلاء الشباب من رسل حب وخير إلى رسل موت وسفاكي دماء يا للهول إني أقرأ في وجوههم الموت، إن أعمارهم تتراوح بين 18 ـ 30 سنة على أكثر تقدير. من الذي غرر بهم، وأية عقيدة سمحت لهم أن يزرعوا الموت بدلاً من الخير وأن يحصدوا الأرواح بدلاً من تعمير الحياة؟ أية عقيدة هذه تسمح بأن تزج بهؤلاء الفتية بمكان كهذا يمارسون فيه لعبة الموت؟ (أن القتل ليس رسالتهم إن كانت لهم رسالة.) تطلعت إلى العيون وإذا بها تتخطفني بنيرانها وشررها تريد أن تحرقني كأنها تستعجل مصيري وعما قريب ستكون من نصيبنا فتفترسك، ولم أشعر إلا ويد الضابط تأخذ بيدي برفق وتسير بي نحو السلالم وما أن وصلت إلى أعلى السلم حتى سمعت همهمة وتساؤلاً من هؤلاء الفتية، من هذه الضحية الجديدة التي جاءت تمشي برجليها لمصيرها المحتوم، ويبدو أن بعضهم قد عرفني فقد التفت إليهم وأنا في أعلى السلم لألقي عليهم نظرة قبل أن أدخل (القصر) فسمعت بعضهم يقول (هذا فلان) دخلت مع الضابط صالوناً فسيحاً مستطيل الشكل يبدو أنه المدخل الرئيسي للقصر، وكان مزدحماً، ففيه شباب مسلحون بأعداد كبيرة، وحركة دائبة، فأجلت نظري يميناً ويساراً، وإذ بمنظر غريب، يتمثل في وقوف بعض الناس ووجوههم إلى الحائط

بأزياء مختلفة، فمنهم من يرتدي البيجامة، ومنهم من يرتدي الدشداشة، ومنهم الأفندي، والمعقل، وقد رفعوا أيديهم إلى فوق (كما كان يعاقب الأستاذ تلميذه في المدرسة) تفصل بين الواحد والآخر أربعة أمتار تقريباً، ويجانب كل واحد من هؤلاء شاب يحمل رشاشة في حالة الأستعداد، ويمنع أياً منهم من الالتفات إلى الخلف، أو ينزل يديه إذا ما تململ من التعب أو حاول أن يدير وجهه قليلاً، تعاجله ضربة من كعب رشاش فيعود إلى وضعه الأول مواجهاً الحائط، تساءلت من هؤلاء ولماذا يقفون هكذا؟ ولكزني الضابط أن سر في طريقك، واتجهنا نحو غرفة على الجانب الأيمن من الصالون وحانت مني التفاتة إلى واحد من هؤلاء المتاعيس فرأيته رجلاً كهلاً نحيفاً يرتدي (زبوناً) من غير سترة، حاسر الرأس وجهه تشويه صفرة، لا أعلم إن كانت طبيعية أم من هول الموقف الذي هو فيه، فهو زائغ البصر شارد النظر التقت عيني بعينه فقرأت فيها عمق مأساته دخل بي الضابط إلى غرفة، ودخل خلفي بعض الشباب وقف بعضهم بباب الغرفة وكان فيها شاب يجلس وراء مكتب معدني، تقدم منه الضابط وهمس بأذنه وأشار بيده نحوي فرفع رأسه وتفحصني ثم قال للضابط (طيب تفضل أنت) فأدى التحية ثم خرج بعد أن ودّعني بنظرة فيها إشفاق مع ابتسامة خفيفة ووقفت وسط

الغرفة، والشخص جالس وراء مكتب وبعض الشباب يقفون ليس بعيداً عنا وكأنهم ينتظرون الأوامر فأومأ لهم الشخص بيده أن أخرجوا ، فخرجوا عدا اثنين ظلا واقفين بالباب، ثم اتجه نحوي وقال (تفضل اجلس هناك) وأشار إلى مكتب معدني أيضاً فتوجهت وجلست خلفه دون أن أنبس ببنت شفه، فقد وطدت نفسي ألا أتحدث إلا مع من بيده الأمر، وأن أتجنب الحديث حفاظاً على كرامتي. جلست بمكاني وراء المكتب، كان في الغرفة ثلاثة مكاتب معدنية وليس فيها كراسي. أخذ الشخص يقرأ في أوراق أمامه دون أن يلتفت نحوي ورحت أتفحصه، إن عمره لا يتجاوز الثلاثين عاماً، ويبدو لي من هيئته أنه أقرب إلى العامل منه إلى الموظف فقد لاحظت أنه يقرأ بصعوبة وشفتاه تتمتمان متهجياً الحروف ومرت عشرة دقائق، دخل بعدها شخص يحمل صينية عليها مجوعة استكانات[1] من الشاي وضع واحداً أمام الشخص دون أن ينطق بكلمة ورمقني بنظرة متفحصة وخرج. هناك حركة مستمرة في الصالون، أقدام تقترب وتبتعد وأصوات متداخلة، ثم دخل شخص وألقى تحية المساء واتجه نحو المكتب الثالث وجلس خلفه وأخذ يطبع على الآلة الكاتبة من ورقة أخرجها من جيبه، مرت نصف ساعة ونحن الثلاثة

1 ـ فناجين الشاي.

والحارسان في الغرفة واحداً يقرأ بصعوبة وآخر يطبع على الآلة الكاتبة، والأخير يسبح مع الأفكار ويصطدم بسؤال مصيري (ماذا سيفعل بي هؤلاء) ودخل ضابط وقف له الشخصان احتراماً وبقيت جالساً في مكاني، كان وجهه مألوفاً لديّ برتبة ملازم أول، لونه أبيض يميل إلى الحمرة وشعره أشقر، ويبدو أكبر بكثير من رتبته فعمره (45) سنة أو يزيد، راح يتمشى في الغرفة حتى وصل قربي ورمقني بنظرة، تذكرته، إنه مرافق أحمد حسن البكر، لقد سبق أن رأيته في التلفزيون يقف وراء البكر، تمشى قليلاً ثم همس بأذن الشخص الجالس فأجابه ذاك بكلمات لم أتبينها، ثم خرج ودخل بعد فترة قصيرة شاب يحمل رشاشاً.

تقدم نحوي ووقف أمامي وقال: (تفضل أستاذ) فمشيت ومشي خلفي، ثم تأبط ذراعي، وخرجنا إلى الصالون وكان على نفس المنظر الأشخاص رافعو الأيدي ووجوههم صوب الحائط، فتشت عن صاحب الزبون ذي الوجه الشاحب فلم أجده بينهم، صعد بي الشاب سلماً دون أن يتكلم وبالطابق الثاني من القصر مشينا في رواق طويل عريض تنتشر على جانبيه غرف كثيرة وأدخلني إلى غرفة واسعة يقف على بابها بعض الشباب المسلحين، وكان أول من طالعت في هذه الغرفة ضابط ركن (برتبة رائد)، يجلس خلف مكتب معدني كبير على يمين الغرفة،

وقد وضع (سدارته)[1] امامه لونه اسمر ، وسنه يقارب الـــ(35) سنة ، فقلت في سري لا شكّ أن هذا الضابط مسؤول كبير في قصر النهاية ، فلم أصادف ضابطاً تدانيه رتبة ، وزاد من يقيني أنه لم يرد السلام عندما ألقيته وأنا أدخل الغرفة ، أدرت نظري إلى الاتجاه الآخر (يسار الغرفة) فإذا بوجه يبتسم لي ابتسامة فيها استغاثة ، كان هذا الوجه مألوفاً عندي ، فقد سبق أن رأيته ، والتقيت بصاحبه ، ولكن ذاكرتي خانتني الآن فلم أعرف من هو ، وما أن أجلسني مرافقي الشاب وراء مكتب معدني في وسط الغرفة حتى التفت نحوي صاحب الوجه المعروف قائلاً لي (الله بالخير سيدنا)[2] فزاد عجبي وفرحت بتحيته فلا شك أنه يعرفني عندما استعمل كلمة (سيدنا) وأجبته (الله بالخير) ثم سألته (منو إنته) فأجابني بصوت خفيض لا يكاد يسمع (أنا راهي) وهنا تذكرته ، إنه راهي ابن المرحوم الحاج عبد الواحد سكر[3] وكان حاسر الرأس ، يرتدي سترة فوق الزبون ودشداشة[4] ويبدو عليه القلق ،

1ـ لباس رأس رسمي .

2ـ صباح الخير أو مساء الخير يختصرها العراقيون إلى (الله بالخير) ، وسيدنا ، تطلق على كل من ينتسب إلى نسل الرسول صلى الله عليه وسلم .

3ـ من أقطاب ثورة العشرين الوطنية وكان وطنياً غيوراً ، اعتقل كثيراً لمواقفه الوطنية وشيخ آل فتلة .

4ـ الدشداشة والزبون لباس عراقي .

وقد اطمأن حينما رآني داخلاً، جلست وراء المكتب المعدني الذي يتصدر الغرفة، وعلى يميني راهي عبد الواحد وعلى يساري الضابط الكبير الصامت، وكل منهما وراء مكتب معدني، وبباب الغرفة شباب مسلحون، يحمل بعضهم راديو ترانزستر وانشغل تفكيري حول الضابط الذي يجلس علي يساري من هو؟ وما هو مركزه؟ يلوذ بصمت ولم يعر دخولي ووجودي أي اهتمام.

وبينا نحن كذلك وإذا بهذا الضابط يرفع يده إلى أعلى وعندما لمحه الشباب (قال له نعم شتريد؟)[1] فأجابه الضابط (تسمحوا لي أروح التواليت). وهنا وضحت الصورة أمامي، وضحكت في سري، ورددت أن وضع صاحبنا كوضعنا تماماً فلماذا هذا التكبر والتجاهل؟ أجابه الشاب (تفضل) فقام من مكانه وذهب معه اثنان من الشباب ثم عاد إلى مكانه، ورحت أفكر فيه وقلت في نفسي هل سيجيبني لو سألته عن أسمه؟ وهل المقام يسمح بذلك؟ وعندما تفرست بوجهه جيداً وجدت الهم والقلق باديين عليه، وبقينا على هذه الحال نحن الثلاثة مع حراسنا، ثم سمعنا وقع أقدام كثيرة تدب في الرواق، وهلت علينا كوكبة من الشباب تقتحم الغرفة يتقدمهم شاب طويل يحمل بيده ورقة. وقف في وسط الغرفة وأخذ يقرأ منها أسماء وبعد أن فرغ من القراءة و

---

1 ـ ماذا تريد؟

وأجابه بعض الشباب (إن فلاناً في الغرفة المجاورة) وفلاناً في الغرفة الأخرى، قرأ ستة أو سبعة أسماء فيها ضباط ومدنيون ثم خرج مع الشباب من الغرفة وبقي معنا الحراس، حسبت أن الأسماء المقروءة مطلوبة للمحاكمة إمام محكمة الثورة الخاصة التي شكلت صباح اليوم خصيصاً لهذه المؤامرة والتي أصدرت أحكامها على وجبات سابقة تم إعدامها، وبينما أنا في جو المحكمة، والمحاكمة، والمرافعة والأدلة والشهود والإثباتات إذا بصوت الرصاص يمزق السكون بصوته الهادر منطلقاً من مجموعة من الرشاشات تصم الآذان وتخلع القلوب، كان الرصاص المنهمر ليس بعيداً عن المكان الذي نحن فيه، إنه قريب، إنه في الطابق السفلي، وأمامنا في الحديقة، استمر هديره أكثر من ثلاثة دقائق ثم خفت حدته وصار متقطعاً إلى أن سكت، تساءلت في سري أهي وجبة جديدة تم إعدامها بالرصاص؟ وكنت أظن أن عمليات الإعدام تنفذ شنقاً كما أعلنت السلطات ببياناتها، لم يزد الوقت بين قراءة الأسماء وبين عمليات الإعدام عن ربع ساعة، ورحت أتساءل لِمَ يتم التنفيذ في الحديقة وأمام المتهمين الآخرين وعلى مرأى ومسمع منهم! للتخويف والترهيب؟ لو أمعنت النظر من مكاني على ساحة الإعدامات في حديقة القصر لرأيت الجثث متناثرة بعد أن مزقها الرصاص، بأوضاع مختلفة وأشم

رائحة الدم مخلوطة برائحة البارود تملأ الجو بدخان الرصاص، سكتت زخات الرصاص، وبعد لحظات سمعت إطلاقات من مسدس بين لحظة وأخرى فعلمت أنها (رصاصات الرحمة) توجه لرأس الضحية التي ما زالت تنازع، أو فيها رمق، أو لم يصبها بمقتل فتجهز عليه هذه الرصاصات وينتهي الأمر ويذهب القاتل منتشياً بما فعل ويذهب المعدوم إلى حيث يشكو ربه ظلامته . .
لقد ارتجفت فرائصي لهول الموقف لا لأنه غريب عليّ لقد سبق أن شاهدت الكثير من الحوادث والمنازعات العشائرية يروح ضحيتها جرحى وقتلى لأسباب قد تكون تافهة، ولكن ما يجري هنا شيْ يختلف ويفوق الوصف إنه قتل عمد، إني أرى أناساً يساقون إلى المذبح تماماً كما تساق الشاة لا حول لها ولا قوة، دون سؤال، أو جواب أو محاكمة ما أتعس الإنسان، وما أظلم الإنسان؟ وبينما أنا كذلك مستغرقاً في أفكاري إذا بصوت المذيع ينطلق من الراديو ويقطع تداعي أفكاري معلناً (أن وجبة جديدة من الخونة قد لقوا جزاءهم) ثم أخذ يعدد أسماء هذه الوجبة . ثم بتعليق يقول (انهم خونة قد ذهبوا إلى مزبلة التاريخ بالخزي والعار) وقد صدمتني عبارة (مزبلة التاريخ) فقد كنت قد سمعتها تتردد كثيراً إبان المظاهرات الطلابية التي كنت أشترك فيها طالباً في الثانوية والجامعة، وها هي الآن تعود من جديد بمفهوم آخر.

ثم أضاف معلق الراديو إن هؤلاء الخونة قد لقوا جزاءهم (بأسم الحق والحرية) ولم أتمالك نفسي من الضحك ورحت في سري أردد (ما أكذبك أي حق وأية حرية)، وتذكرت كلمة (شارلوت) التي اغتالت (مارا) عندما سيقت إلى (الجيوتين) (مسكينة أيتها الحرية كم من جرائم ترتكب باسمك؟) ورحت أفكر بهؤلاء المجزورين الذين أرسلوا منذ هنيهة إلى مزبلة التاريخ بأمر من طه الجزراوي، وناظم كزار، وعلي رضا، أفكر في مصير أولادهم وأهليهم، لم أعرف أحداً منهم، ولم أر وجهه وهو يواجه الموت لم أرهم إلا أشباحاً تتهاوي، وتتقلب، وتجود بأرواحها، والرصاص يحاصرهم، فمنهم من يتكور على نفسه ممسكاً جراحاته ومنهم من ينكفئ على وجهه ومنهم من يتجه بوجهه المخضب نحو السماء ورحت أترحم على أرواحهم وإذا بصوت من داخلي يصرخ بي أنت المسكين، إنهم قد انتهوا الآن، وتحرروا من قيود الدنيا، وظلم الإنسان وذهبوا لملاقاة رب رحيم/ وبقيت أنت تعيش العذاب، عذاب الأنتظار، وما أقساه من عذاب، أدرت وجهي إلى حيث راهي فوجدت الاضطراب قد أخذ منه مأخذاً كبيراً، فقد كان رحمه الله زائغ البصر، يكثر من التلفت كأنه يستنجد بكل من ينظر إليه، ويبتسم في الوجوه ابتسامة المسكين المستكين، فقلت يا للعجب العجاب، أهذا هو

ابن عبد الواحد الحاج سكر! ثم أدرت وجهي إلى حيث يجلس الضابط الذي لا أعرف حتى الآن اسمه، وجريرته يجلس صامتاً مشغولاً بهواجسه، لم يعرنا أي اهتمام، ولم يتململ رغم طول الجلوس ولا يلتفت لا يمنه، ولا يسرة، يحدق بنظره إلى الأمام مستقراً على نقطة ثابتة نحو باب الغرفة كأنه ينتظر الخلاص من قادم منه وأنا الآخر كان نظري مركزاً على الباب أيضاً، أترقب قدوم رسول الموت أو الحياة بين لحظة وأخرى وكلما هل علينا أحد نقول ها هو قادم ولكن الأمل يخيب هكذا بين الرجاء والخيبة إلى أن قاربت الساعة العاشرة والنصف حيث سمعنا وقع أقدام كثيرة تدب نحونا، وتقترب، وتدخل مجموعة من الشباب المسلحين يتقدمهم أكبرهم سناً، ويبدو من هيئته أنه ذو مكانة ومنزلة فقد وقف له من في الغرفة من الحراس احتراماً ويحمل بيده ورقة وترقبت أن يقرأ منها أسماء وجبة جديدة ولكنه أتجه إلى الضابط الجالس على يساري وسأله (أنت الرائد الركن عبد الستار عبد الجبار العبودي؟) فأجابه الضابط (نعم) ثم سأله (ما دورك في المؤامرة) الضابط (يا مؤامرة ويا دور إلي بيهه.. يا جماعة آني ضابط قومي وحدوي) ثم أضاف (آني كان بودي لو كنت أعرف بالمؤامرة) فأجابه الشاب باستنكار وبصوت عالي (إشلون بودك

تعرف المؤامرة)[1] فأجابه الضابط عبد الستار (نعم كان بودي اعرف بيهه حتى أبادر إلى إعلام السلطات المسؤولة وفضحها . . ثم أية علاقة تربطني بجماعة مثل صالح السامرائي ورشيد الجنابي . . آني شاب قومي واشتركت بحركة عارف عبد الرزاق وبعد ثورة 17 تموز التقيت بالسيد الرئيس البكر بالقصر الجمهوري وليس بيننا شئ ، وقد نقلني السيد الرئيس إلى كركوك ، وأنا كنت هناك منذ عشرة أيام جيء بي إلى بغداد وأودعت في سجن رقم "1" في معسكر الرشيد ، وقبل ساعات قليلة جيء بي إلى هنا ولا أعلم السبب فأية مؤامرة أنا مشترك بيهه) كان يتكلم بثقة وثبات فسأله الشاب (ولماذا جاءوا بك من كركوك ووضعوك بالسجن ؟) فأجابه عبد الستار (هاي قصة ثانية)[2] أجابه الشاب (نريد أن نعرفها . أحكيها . أنا مسؤول ، ويجب أن تجيب على سؤالي؟) كنا وجميع من في الغرفة نتابع هذا الحوار باهتمام حتى الحراس قد أنصتوا أيضاً ، أجاب عبد الستار (قصة اعتقالي في كركوك وجلبي إلى هنا هو أن أمراً إدارياً كان قد صدر من وزارة الدفاع وعمم على جميع الوحدات ومنها الوحدة التي كنت فيها ، وقد علقت بخط يدي على الورقة التي تحمل هذا الأمر

---

1 ـ اشلونْ : كيف

2 ـ هاي : هذه

بعبارة (هذا أمر سخيف)، ويبدو أن تعليقي هذا على أمر وزارة الدفاع قد بلغ أسماع المسؤولين في بغداد وعندما جاء السيد صدام حسين إلى كركوك مقر وحدتي في طريقه لملاقاة الملا مصطفى البرزاني، سأل آمر الوحدة عن الضابط الذي علق على الأمر الوزاري بعبارة أمر سخيف، فجيء بي إليه فما كان منه إلا أن مد يده إلى كتفي ونزع الرتبة العسكرية وطلب من الآمر إيداعي التوقيف لحين عودته، وعندما عاد من الشمال اصطحبني معه إلى بغداد وأودعت سجن رقم 1 منذ عشرة أيام كما أخبرتكم، والآن جاءوا بي إلى هنا.. وهذه كل الحكاية يا جماعة صدقوني وأن السيد صدام حسين موجود ويمكنكم أن تسألوه.. فلا مؤامرة ولا يحزنون). انتهت رواية عبد الستار وكان يتكلم كما قلت بثقة واطمئنان حتى أن حديثه قد أثر على جميع السامعين بمن فيهم الحراس. حيث لاذوا بالصمت، وهنا بادره الشاب بسؤال استنكاري (وكيف تعلق على الأمر بكلمة سخيف ألا تعتبر هذا تحدياً لرؤسائك) فأجابه عبد الستار (اعتذر عن هذا، واعترف أني أخطأت، ومستعد للمحاكمة على غلطتي هذه، أما المؤامرة فأعوذ بالله ومع من أتآمر؟ ولويش)[1] فأجابه الشاب وقد وضع ورقة فلسكاب بيضاء أمامه على المكتب مع قلم

1 ـ لويش ـ لماذا

رصاص قائلاً (أكتب) فسأله عبد الستار (ماذا أكتب؟) فقال له (أكتب عن دورك في المؤامرة القِبِذرة) فأجابه عبد الستار بضيق (مو حكيت لك الحكاية من أولها إلى آخرها) فأجابه الشاب (أنا ما أعرف أكتب عن كل الذي تريد تكتب عنه، هاي أوراق وهذا قلم أكتب ما تشاء) ثم استدار خارجاً من الغرفة وترك عبد الستار مع الأوراق والقلم في حيرة مرت لحظات صمت وأنا أرقب عبد الستار، مشفقاً على حاله، وأخذ يحرك رأسه يمنه ويسرة ثم تناول القلم، وكتب سطرين ثم رمى القلم، والتفت فجأة نحوي، نظر إلي نظرة طويلة، وعميقة، بدا لي أنه يعرفني، وكأنه يستنجد طالباً المعونة لإيجاد مخرج له من هذه الورطة، ثم تمتم (ماذا أكتب)، فابتسمت له مشجعاً قائلاً له بصوت خفيض (أكتب يا أخي قصتك كما هي واتكل على الله) ولم أزد، فأنا أعرف أني لا أستطيع إنجاده أو مساعدته فمصيرنا واحد، فإن كانت جريرته تعليق على أمر إداري، فالله وحده يعلم ما هي جريرتي، عاد وانكب على الورق وراح يكتب ويكتب وملأ الورقة بوجهيها، وبعد أن فرغ وضع القلم بجانب الورق وأراح جسمه إلى الوراء مسنداً ظهره إلى الكرسي، وأخذ نفساً عميقاً وقال بصوت عالٍ مسموع (يا رب) مرت ساعة على خروج الشاب من الغرفة، ونحن في صمت ننتظر المجهول، وعاد الشاب

إلى الغرفة ، وتوجه إلى عبد الستار وتناول الورقة ، وعاد يقرأ فيها وبعدها سأله (هذا كل ما عندك؟) فقال له عبد الستار : نعم فقال له الشاب (وقع هنا) وأشار له على الورقة ، فوقع عبد الستار ، فأخذ منه الورقة والقلم ، وخرج من الغرفة ، ومرت ربع ساعة تقريباً ، وإذا بنفس الشاب يقف بباب الغرفة ويؤشر بيده إلى عبد الستار قائلاً له (تفضل) فما كان من عبد الستار إلا أن نهض والتقط سدارته من على المكتب ، وخرج مسرعاً وراء الشاب الذي سبقه ، وغابا عن الأنظار ، وبعد لحظات دخل الغرفة شاب يحمل بيده ورقة صغيرة خمنت ان فيها أسماء وجبة جديدة وأخذ الشاب يقرأ الأسماء وعيني معلقة بفمه ، كأني أترقب سماع إسمي ، وكان في القائمة اسم كل من الضابطين الطيارين أنور الجميلي وصلاح الغبان ، وكنت أعرفهما ، قرأ سبعة أو ثمانية أسماء ثم خرج من الغرفة ، التفت إلى ورائي حيث النافذة المطلة على ساحة الإعدامات أختلس النظر من خلال زجاجها لأتبين ما يجري فيها فقد سمعت جلبة وضوضاء تحت النافذة وبصعوبة رأيت بضعة أفراد لا يتعدى عددهم الثمانية تحيط بهم مجموعة كبيرة من الشباب المسلح يسوقونهم سوقاً إلى الأمام ويدفعونهم ، حتى لا يتخلف أحد أو يتقاعس ، منظر يشبه تماماً منظر جزار يسوق قطيعاً إلى المذبح ، فالمنظران متماثلان ، والفرق أن هناك

قطيعاً من الغنم وهنا (قطيع من البشر)، هناك جزار غنم، وهنا جزار بشر، والمجزور هناك أغنام أحلّ الله ذبحها والمجزور هنا إنسان حرم الله دمه، سبعة أو ثمانية أشخاص بأزياء مختلفة يسيرون داخل حلقة من الشباب المسلح بالرشاشات والمسدسات يدفعونهم إلى الحديقة.. ولم أعد أتبين المنظر من شدة الظلام، ومرت لحظات لم أسمع فيها سوى دقات قلبي تضرب بعنف، وفجأة انطلق الرصاص زخات كأنها المطر، ورأيت شبحاً يجري في الحديقة هنا وهناك، يقوم ويقع، كأنه هارب من نار، ولكن النار تلاحقه ويصرعه الرصاص الذي استمر يلعلع دقائق، ثم توقف، وبعد لحظات رأيت ثلاثة شبان يتقدمون نحو الحديقة وقد شهر كل منهم مسدساً ثم سمعت إطلاق رصاصات حسبتها رصاصات الرحمة تطلق على رأس الضحية وتخمد أنفاسه، وجدت نفسي أتمتم بعبارة (لقد تحرروا من العذاب والألم وصعدت أرواحهم إلى بارئها) أشحت بوجهي عن النافذة وعدت إلى جو الغرفة وإذا بصوت الراديو يعلن أسماء الوجبة التي جزرت قبل قليل يقول (إن الحكم قد نفذ منذ قليل في مجرمين وهذا جزاء كل خائن متآمر وإلى مزبلة التاريخ) وإلى آخر المعزوفة وأخذ المذيع يعدد أسماء الذين أعدموا وذكر أسم المرحوم الرائد الركن عبد الستار عبد الجبار العبودي، وإذا بأحد

الشباب المكلفين بحراستنا يقول وباستغراب (هذا هو الضابط اللي كان قاعد هنا؟) أجابه راهي (أي أغاتي هو)[1] فما كان منه إلا أن مط شفته السفلى وهز رأسه علامة الاستغراب والاستنكار وتفوه بكلمة (عجيب) وسكت، فقلت في سري ياللمهزلة حتى هذا الشاب الحزبي المكلف بحراستنا لم يصدق هذه المهزلة، واستنكر العملية، كيف لا ومنذ وقت قصير لم يتجاوز النصف ساعة كان الضابط المرحوم عبد الستار حياً يتكلم، ويدافع بحيوية، وصدق، مؤكداً براءته بحجج وبراهين مقنعة فإذا به يرسل إلى القبر بدلاً من أن يرسل إلى أهله ولأطفاله، كان هذا ما يدور بعقل الشاب بلا شك، ثم ظل الشاب ساهماً بعد إعدام الضابط وكأن ضميره يؤنبه، إن عمره لم يتجاوز الثامنة عشرة يحمل رشاشاً، ويضع في وسطه مسدساً ويبدو أنه طالب ثانوي، كثيف الشعر أسمر اللون، يدل من لباسه أنه فقير الحال، وقد يكون حديث الانتماء إلى حزب البعث، وهذا ظاهر من تعليقه العفوي الذي لا يصدر من حزبي متمرس، وظل الشاب ذاهلاً عما يجري حوله كما لو أن صحوة ضميره قد أوجعته، في حين راح

زملاءه الاخرون يثرثرون ويتضاحكون ويدخنون وكأن شيئاً لم يحدث وكأن ازهاق ارواح الابرياء امر طبيعي ومألوف، لايحرك فيهم

---

1 أغاتي: مولاي... سيدي

مشاعر إنسانية أو كأنه (رسالة خالدة) هي رسالة البعث، حتى لو جاءت هذه الرسالة مغمسة بالدم، وظل الشاب على وجومه وحاولت أن أقرأ أفكاره وأتداعى معها إلى أن يجيء دوري، إن الذي يخفف من ألم العذاب عذاب الانتظار، هو الاعتصام إلى النفس والغوص في أعماقها، وهذا ما فعلته، لا مع نفسي فحسب بل حاولت استكناه أعماق هؤلاء الشباب الذين يحرسوننا وسبر أغوار نفوسهم، وقد وجدت بعض التسلية في هذا الجو الخانق فشيء ممتع أن يخلد الإنسان إلى نفسه في ساعة حاسمة كهذه، خاصة وأنه موقن بأنه سيودع الدنيا وما فيها بعد حين، فكان حديثي مع نفسي قاسياً، وهو عبارة عن حساب عن الماضي الذي راح بحسناته وسيئاته، أحصي هذه وتلك وندمت على كثرة سيئاتي وتمنيت لو إنها كانت أقل، وحزنت على مواقف أسأت فيها لأصدقاء بدافع الوطنية والنضال، وهكذا عشت مع الماضي أقلب صفحاته وأقرأ فيها كأنه شريط سينمائي، وكانت أسعد اللحظات تلك التي عدت فيها إلى طفولتي البريئة والدنيا من حولي ضاحكة مبهجة، محاط بحنان الأبوين، ورعاية الأخوة والأعمام والأقرباء، لا أدري كم استغرقت القراءة النفسية ولكني أفقت على ضوضاء ووقع خطوات كثيرة تقتحم الغرفة وإذا بمجموعة من الشباب يحيطون برجل كهل،

حاسر الرأس يرتدي سترة وزبون وينتعل نعالاً، يمسك به شاب أنيق المنظر أكبر سناً من البقية، وأوقفوا الرجل الحاسر الرأس المسحوب، وقد كسا وجهه خوف وهلع أمام راهي عبد الواحد الحاج سكر، ثم أخذ الشاب الأنيق يسأله ويشير بيده إلى راهي (موهذا راهي عبد الواحد الحاج سكر)[1] ثم يلتفت إلى الرجل المذعور المرتجف يحدق في عينيه، فيجيب هذا بعد تردد وبصوت خفيض يكاد لا يسمع (أي بيك هوه) فيصرخ به الشاب ثانية (صيح حيل ما أسمع)[2] فيرد الرجل بصوت مسموع (أي بيك هوه). فيسأله مرة ثانية (أنت مو وديتله رسالة بيدك إلى بيتهم ؟)[3]فيسكت الرجل ويتردد في الجواب ويصرخ به الشاب(احكي) فيجب الكهل أي بيك وديتله رسالة،فيصرخ به الشاب مرة ثانية (لوين وديتها)[4] فيرد الكهل(الى بيتهم بيك) كل هذا وراهي مذهول ينقل بصره بين الشاب الانيق المستنطق وبين هذا الكهل ولم يحر جوابا ، وقد عقل لسانه ، ثم يلتفت الشاب الانيق الى المسلحين ويامرهم بأخذ هذا الرجل خارج الغرفة وقبل ان يسحب الكهل الى الخارج ، تململ راهي وكأنه افاق من دهشته ، وصاح بصوت اجش (اوقف اغاتي

1 ـ مو: أليس .... أكيد

2 ـ ارفع صوتك

3 ـ حملت له رسالة إلى بيته

4 - الى اين حملتها

أكلك أغاتي)[1] يخاطب الشاب ولكن لم يعره التفاتاً أو يهتم بـه، ووجه راهي سؤاله إلى الرجل الكهل قبـل أن يسـحب إلـى خـارج الغرفة (أغاتي أنا أعرفك تعرفني؟) زين تعرف بيتي وين؟) ولكـن كلام راهي ضاع مع الجلبة وسحب الرجل إلى خارج الغرفة وظل راهـي باهتـاً، وأسـئلته معلقـة دون جـواب لا مـن الرجـل الكـهل المسحوب، ولا من الشاب الأنيق الذي ظل واقفاً في الغرفـة، ثـم التفت راهي إلى الشاب وأخذ يوجـه كلامـه إليـه قـائلاً (أغـاتي إذا كـان هـذا الرجـل ينـدل بيتـي وداخـل بـي أنـا مسـتعد لكـل شـيء واعدمونـي[2] وهنـا صـاح الشـاب الانيـق (تعـالوا تعـالوا جيبـوا الرجال)وكانوا قد خطوا بـه خـارج الغرفـة، وعندمـا ادخـل مـن جديد بادره الشاب بهذا السؤال (إنت مو رحت البيته بالكرادة؟) فأجاب الرجل الكهل بهزة مـن رأسـه بمعنـى (نعـم) دون أن ينطـق بحـرف وهنا ضحك راهي بصوت عـال وبفـرح كأنـه قـد عثر علـى دليـل براءتـه قـائلاً للشـاب (هـذا الرجـل يكـذب يـا بيـك آنـي بيتـي مـو بالكرادة أبداً) وهنـا ضـاق الشـاب ذرعـاً براهـي وبإلحاحه فصرخ بوجهـه (اسـكت) ثـم أشـار بيـده فسـحب الرجـل وأخـرج خـارج الغرفـة، ثـم خـرج وراءهـم دون أن يلتفـت إلـى توسـلات راهـي

1 ـ قف مولاي... أقول لك مولاي

2 ـ يندل: يعرف

وصياحه من ورائه (تسمح يا بيـك . . أرجوك بيك) فلـم يسـمعه البيك، وتركه لهواجسه وتمتماته (أنه . . رسالة . . بيت بالكرادة؟ كذاب . . كذاب .) يتحدث مع نفسه وقد أشـفقت عليـه من هـذه التمثيلية، وعدت للحديث مع نفسـي، ولكـن حديثي مع نفسـي انقطع بدخول أفندي أنيق يمسك بيده مسبحة صفـراء اللـون كأنـها كهرب وعلى وجهـه ابتسامة خفيفـة واتجـه نحـوي ووقـف قبـالتي على بعد بضع خطوات، وأخذ ينظر إليّ ثم يحول نظره عني، ثم يعيده دون أن يتكلـم فتعجبـت لحالـه وبعـد لحظـات بـادرني بقولـه (مساء الخير أستاذ أحمد) بلهجة فيها رقة ولطـف لـم أسـمع مثلـها منذ دخولي لهذا المكان فأجبته (مساء الخير) إنـه أول مـن يتحـدث معي ، فمنذ مرور ساعات على وجـودي فـي قصـر النهايـة وحتـى هـذه اللحظـة لـم يتحـدث احـد غـير حديـث ذلـك الضـابط صـاحب النظـارة الذي هددني وتوعدني بالقتل، ثم خطا نحـوي خطوتـين وسـألني (أستاذ إنت المن أعطيت صوتك فـي انتخابـات نقابـة المحـامين؟)[1] وكانت انتخابات النقابة قد انتهت قبل أيام وفـاز بـها الأسـتاذ عبـد الوهاب محمود، فقلت في سري (عـرب ويـن وطنبـورة ويـن)[2] ولكنني أجبته (والله أستاذ أنا ما حضـرت انتخابـات) فسـأل (لماذا

---

1 ـ لمن اعطيت صوتك...

2 ـ مثل عراقي يدل على التناقض

لم تحضر؟) فأجبت (لأني لا أريد أن أعطي صوتي) فسأل (يعني قاطعت الأنتخابات: لويش؟) فأجبت (لي رأي في القوائم المتنافسة وفي جو الأنتخابات وفضلت عدم الحضور) وهنا غيّر الحديث بسؤال جديد ولون جديد فقال (إشلون الأستاذ مالك دوهان؟)[1] فاجبته (زين بخير) فعاد يسأل (أتشوفه؟) فأجبت أحياناً فعاد يسأل ليش بعدكم متزاعلين[2] فأجبته (ليس بيننا زعل) فسأل (يعني منقسمين) فتجاهلت سؤاله فضحك وكنت طيلة هذه الفترة والحوار أمعن النظر فيه، فقد كان وجهه ليس غريباً عني ولا صوته ويبدو أنه قريب من المحامين ومن وسطهم ولكنه ليس محامياً، ويبدو أنه موظف في سلك القضاء أو الإدارة القريبة من المحاكم، وحاولت جهدي أن أعرفه فلم أوفق، وهنا استدار وخطا نحو باب الغرفة خارجاً فالتفت إلى أحد الشباب المكلفين بحراستنا وسألته عن اسم هذا الشخص وقبل أن يجيبني صاح به قائلاً (لا تذكر إسمي لأنه يعرفني) ثم ضحك بصوت عال وسار في طريقه إلى الخارج، وأنا أشيعه بنظراتي، وبينا أنا في تفكير حيال هذا الشاب، يدخل علينا شخص طويل عريض يرتدي الملابس العسكرية (برتبة ملازم ثاني) وقد وضع يديه في جيبي

1. كيف حال

2. هل لازلتما متخاصمين

بنطلونه ونظر إليّ وسألني بلثغة في السين (أستاذ أنت فلان) فأجبته (نعم) فسأل (تدرّي لويش جايبيك لهنا أستاذ)[1] كان في سؤاله نبرة سخرية واضحة، فأجبت على الفور وبسخرية أيضاً (آني أسألك لويش أنتم جايبيني لهنا مو انته اللي تسأل)[2] فلم يجب بل صعد نظره بغضب، وقطب جبينه ثم انسحب خارجاً من الغرفة، وهنا قفز أحد الشباب المكلفين بحراستنا وكان يراقب الموقف، ودنا مني وقرب فمه من أذني بحركة سريعة وقال لي بصوت خافت (على كيفك أستاذ لا تصير عصبي، ترى القضية مليوصة، عباس ما يعرف دباس، أسكت أحسن إلك)[3] ونظرت إليه مستغرباً فابتسم في وجهي، فقلت له بصوت خفيض أيضاً (أشكرك أخي)، ثم انسحب إلى مكانه، ورحت أفكر في كلمة (مليوصة) هذه كم روح بريئة أزهقت باسمها، يالها من مهزلة (لأن القضية مليوصة) ما أبلغه من تعبير عما جرى ويجري في هذا المكان من مهازل ولا أدري متى (تنلاص عليٍّ) ووجدتني أضحك في سري وقد تذكرت الهوسة المعروفة التي يرددها العراقيون (مليوصة يا حسين الصافي) الآن عرفت معناها

1 ـ هل تدري لماذا جاءوا بك إلى هنا

2 ـ أنا أسألك لماذا جئتم بي إلى هنا وليس أنت الذي يسأل

3 ـ على مهلك ولا تتعصب لأن الأمور فوضى.. أسكت... لمصلحتك

والفضل يعود لهذا الشاب، ثم تساءلت عن الدافع الذي حدا به أن ينصحني وهل هو صادق في نصحه، وما يمنع أحداً من هؤلاء المسلحين أن يسحبني إلى حديقة الموت ويرميني بزخة من رشاشه وإلى مزبلة التاريخ؟ صحيح، ما هو المانع، إن حياتي رهينة بيد هؤلاء، بيد عباس، ودباس، نظرت إلى الشاب الناصح بعد أن عاد إلى مكانه، ورحت أتفحصه، إن عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين، بشارب كثيف معقوف كرقم ٨ يتمنطق مسدساً بحزامه، لا يبدو عليه الحماس الذي عند زملاءه فهو لا يضحك لضحكهم ولا يشاركهم تعليقاتهم، فإذا كان مؤمناً بأن ما يجري مهزلة ومسرحية فما الذي جاء به أهو مكره على الحضور تلبية لواجب حزبي، ثم تذكرت زميله الذي استنكر قتل المرحوم عبد الستار العبودي حينما أعدم ورحت أربط بينهما فكل منهما ينزع من مصدر واحد، ويجمعهما استنكار، وعدم قبول لما يجري، جلست بمكاني لائذاً بالصمت، عاملاً بنصيحة هذا الشاب مولياً على نفسي أن أظل متماسكاً دون أن يستفزني أحد، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. شعرت بتعب وإرهاق من طول الجلوس وعدم الحركة، نظرت الى ساعتي فقد تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، واحتجت الرواح الى التواليت فقام معي الشاب صاحب النصيحة وسار بي الى التواليت

وهناك كرر النصيحة قائلاً (مثل ما وصيتك أستاذ)[1] فقلت له (إن شاء الله) ثم عدت إلى مكاني في الغرفة، وما أن جلست حتى دخلت علينا مجموعة من الشباب يتقدمهم واحد منهم بادرني بسؤال (أنت فلان الذي جاءت بك سيارة النجدة؟) فأجبته (نعم) فالتفت إلي بعض الشباب قائلاً لهم (أخذوه بره، وقفوه هناك إلى أن أصيحلكم)[2] وأشار بيده إلى الرواق فأخرجتُ ووقفت في الرواق مع الحراس وظل هو في الغرفة مع راهي وبعد خمس دقائق صاح عليّ الحراس (تعالوا جيبوه) فجاءوا بي مرة ثانية وجلست بمكاني وظل واقفاً وقد توقعت أن يباشر معي نقاشاً أو حواراً أو تحقيقاً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنه لم يفعل، ثم نظرت إلى راهي لأستطلع في وجهه شيئاً، فلم أقرأ في نفسه شيئاً فلا زال ذاهلاً مشدوهاً، ينظر إلى الأفندي بانكسار، بعد لحظات خرج الشاب مع الحراس الذين جاءوا معه، وخرج معهم صاحب النصيحة وشعرت بانقباض فقد كنت أشعر ببعض الاطمئنان لوجوده معي، وحل مكانه شاب آخر ضخم الجثة، كثيف الشعر والشارب، وشكله غير مريح، أخذ يحدق بي بشكل ملفت، فتحاشيت نظراته متشاغلاً عنه، متذكراً النصيحة الثمينة، ولكنه

1 ـ كما أوصيتك

2 ـ خذوه إلى خارج الغرفة... وأوقفوه إلى أن أطلبكم

ظل يلاحقني بنظرات حادة ، فاستعذت بالله منه وصدر منه صوت جش يقول (يا جماعة أنتم اتعشيتو . . تر أنه جوعان مو متعشي شعدكم أنطوني)[1] فقام أحد الشباب خارجاً من الغرفة وعاد يحمل بعض السندويشات وقدمها له ، فأخذ يقضم بنهم وامتلأ فمه وانتفخت أوداجه ، حتى أتى على كل السندويشات ، وبعد أن مسح شاربه التفت نحوي وقال (إي استاذ اشلونك)[2] وأعقبها بضحكة ، فلم أجبه ، ولعنت الشيطان ، ولعنت الساعة التي وضعتني أمام هذا الثور الأهوج ، ودعوت من الله أن يكفيني شره ، ويستجيب رجائي ، ويعجل فرجي ، فأنا لا أملك من دنيايّ هذه (والحمد لله) غير كرامتي ، حافظت عليها وصنتها ولن أسمح لهذا الصعلوك أن يمسها أو يتطاول عليّ ، ورحت أردد في سري قول المتنبي : وإذا لم يكن من الموت بد . . فمن العار أن تموت جباناً .

رفعت رأسي ونظرت إليه فقرأ في وجهي الغضب والانزعاج فلاذ بالصمت ، ثم أشعل سيجارة ، وأخذ منها نفساً عميقاً وراح ينفث الدخان من فمه وأنفه كالمدخنة ثم عاد يقول بلهجة جادة (تسمح أستاذ أسألك؟) أجبته (أسأل) فقال (طبعاً أستاذ خو إنته

1 ـ أنا جائع ولم أتعشّ ، أعطوني ما عندكم .

2 ـ نعم أستاذ ، كيف حالك . . ؟ قالها للتهكم

ما قصرت، إشكد ابنيت ابيوت، وإشكد بكت إفلوس من أموال الشعب وصرت زنكين، وحطيت أفلوسك بالبنوك موهيجي أستاذ؟[1] وهنا انتبه الحراس الآخرون إلى كلامه، واتجهوا بأبصارهم نحوي كأنهم ينتظرون ردي، فأخذت نفساً عميقاً لأسيطر على غضبي وأتمالك أعصابي، حتى يكون جوابي له بسيطاً كعقله فقلت له (لا شك يبدو من سؤالك هذا أنك مواطن مخلص لوطنك، حريص على أموال شعبك فمن حقك أن تعرف إن كنت قد سرقت الشعب وأموال الشعب وبنيت البيوت وأودعت النقود في البنوك، لكن بربك قل لي أيها الأخ، إنت شنو شغلك أولاً حتى أجيبك) وهنا ضحك رفاقه وعلا ضحكهم فالتفت إليهم بغضب قائلاً لهم (إشبيكم تضحكون)[2] ثم أجاب (يعني عيب إذا كنت عامل نسيج؟) فأجبته على الفور (لا والله مو عيب) ثم قال (أنت تسأل شلك كار بشغلي)[3] فأجبته (ليش مالي كار بشغلك آنة هم مواطن صالح، مخلص لوطني، يهمني أعرف أنت شنو ومنو)[4]. ثم سألته (أنت تعرف تقرأ وتكتب؟)

1 ـ طبعاً أنت لم تقصر، كم بنيت من البيوت، وكم سرقت من أموال واصبحت ثرياً ووضعت فلوساً بالبنوك... أليس كذلك؟

2 ـ لماذا تضحكون

3 ـ ليس من شأنك أن تسأل.

4 ـ من حقي أن أعرف من أنت وما عملك

فأجاب لا وفجأة تذكرت لماذا تفشل معامل النسيج في عملها وتخسر باستمرار، ثم قلت له (الآن أجيبك على سؤالك عن سرقاتي وبيوتي ورصيدي حتى تطمئن . .)وقبل أن أكمل انبرى واحد من الشباب صائحاً به)أرجوك لا تتكلم أنت تعرف ويا من تحجي هذا فلان)[1] ثم التفت لي وقال (العفو أستاذ) ولذت بالصمت كما صمت العامل وبان عليه الغضب، وسار الزمن بطيئاً وأخذ يقترب من الثانية بعد منتصف الليل، وقد هدأت حركة الحراس، وراحوا يتثاءبون، والنعاس يغالب عيونهم، وسمعنا وقع أقدام كثيرة تقترب منا باتجاه غرفتنا، وتدخل مجموعة من الشباب إلى غرفتنا وأشار أحدهم بيده لي ولراهي قائلاً (أنت . . أنت . . يالله قوموا) قمت من مكاني موقناً أن ساعتنا قد دنت إذ لم يعد في الغرفة غيري وغير راهي بعد أن أعدم من كانوا في الغرف المجاورة، وها هو دورنا قد جاء، وبدأت أقرأ مع نفسي (كل نفس ذائقة الموت) (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) صدق الله العلي العظيم، وشعرت براحة نفسية وكأني إنسان آخر في عالم آخر، أرحب وأنقى، وأطهر. فعما قريب ينتهي عذابي إلى الأبد، وواصلت القراءة (يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي وادخلي جنتي) وأن تكون النهاية

1 ـ ويامن تحجي: مع من تتكلم؟

الساعة، خير من أن تجئ بعد حين، أنا بكامل قوتي وعافيتي، خير من أن يصرعني مرض الشيخوخة، أو تفتك بي مختلف الأمراض، هذا قضاء الله ولا راد لقضائه، وأحاط بي الحراس وبراهي، وخرجوا بنا من باب الغرفة، وإذا براهي ينحني على (لفه كبيرة) كانت موضوعة بباب الغرفة، مكونة من مرتبة، وبطانيات، ومخدات، وشراشف، فلم يستطع حملها، وكلما حاول من جانب، سقط جانب آخر، يحمل البطانية فتسقط المخدة، يحملها فيسقط الشرشف، كان المنظر يبعث على الرثاء، لقد ظن هذا المسكين أن مدة توقيفه ستطول، ويحتاج إلى هذا الفراش الوثير يقيه البرد ويهيئ له مناماً مريحاً، وما دري أنه سوف لن يستعمله وسيتركه لغيره فعاونته على حمل بعض فراشه، فتركني أفعل، وأذكر أني حملت بطانية، ورفض أن أحمل أكثر قائلاً (العفو سيدنا مولانا) ثم سرنا يحمل هو اللفة الكبير، وأمامنا وخلفنا يمشي الحراس، فنزلوا بنا سلالم، وكان راهي يمشي أمامي وأنا خلفه، كان قصيراً، وبديناً إلى حد، يرتدي الزبون، فوق الدشداشة، والسترة فوق الزبون، حاسر الرأس، ولما وصلنا إلى الطابق الأرضي أشار شاب إلى باب يؤدي إلى خارج البناء قائلاً للحراس (فوتوا من هنا)[1] سرنا بضع خطوات، وإذا بي أجد نفسي في الحديقة، أي المكان الذي تنفذ

1 ـ ادخلوا من هنا

فيه الإعدامات، فأيقنت إن الساعة قد دنت وأن إعدامنا سينفذ هنا في هذه الساحة التي شهدت كل الإعدامات، كنت أسير خلف راهي ويسير خلفنا الحراس برشاشاتهم ويدفعوننا دفعاً إلى وسط الحديقة، فوقفت بمكاني ورفضت أن أخطو خطوة واحدة، وصحت بأعلى صوتي (اسمعوا يا جماعة أنا لا أخاف من الموت فهو حق علينا جميعاً ولكن لن أموت بهذه الصورة، وقبل أن أحاكم، فأين المحكمة والمحاكمة؟ وكيف تريدون إعدامنا دون محاكمة، فأنا لم يأخذ أحد أقوالي، ولم يحقق معي ولن أسير أو أتحرك من مكاني،) كنت أتكلم بصوت عالي، فالموقف لا يحتمل السكوت، فها أنا في ساحة الموت، وأمامه وهذه لحظة حاسمة، وما أن سمع راهي كلامي حتى رمي (اللفة) من يده ورجع بسرعة، ووقف بجانبي، والتصق بي، فقد أحس بخطورة ما قلته، وهنا تكلم أحد الحراس طالباً السير بلهجة لطيفة قائلاً (تفضل أستاذ أمشي لا تخاف) فقلت له (اسمع أخي أنا غير خائف ومستعد للموت، ولكن ليس من دون سؤال، وجواب، وتحقيق، ومحاكمة، يا أخي يمكن عندي وصية لأهلي) وهنا قال راهي (إي . . إي . .) فما كان من الحراس إلا أن يدفعوننا بكعوب رشاشاتهم طالبين مواصلة السير بالقوة دون جدوى، فقد تشبثت وراهي بمكاننا وأنا أصيح فيهم ولا أتزحزح، أين المحكمة، وإذا بشاب يطلع علينا من القصر، مسرعاً وهو يقول: (ها خير أستاذ

ليش تصيح)[1] فقلت له: (أي خير أخي ألم تر بعينك أنهم يدفعوننا إلى الموت بدون محاكمة، أنا أرفض التحرك من مكاني، أنا أطالب بمحاكمة، ثم افعلوا بعد ذلك ما تشاءون) لا أدري لم كان إصراري على المحاكمة شديداً، وأنا أعلم جيداً إنها صورية، وشكلية، ولكن رغم يقيني بهذا كنت أصر عليها، وكأني أريد أن أسجل من خلالها شيئاً للتاريخ وللأجيال من بعدي، إن أرادت أن تقرأ، وسرعان ما تقدم مني الشاب ومسك ذراعي، وخطا بي خطوة، مبتعداً عن الحراس، وهمس في أذني قائلاً (أستاذ فلان ماكو إعدام إن شاء الله نحن تعرفك زين أنت راح تنام الليلة في مكان آخر. وغداً تجري المحاكمة) ثم أضاف (احنه نعرفك، ونعرف مواقفك) ثم قال لي أخيراً مشيراً بيده إلى راهي (ابتعد عن هذا المجرم شلك كار بي)[2] فقلت له (أية مؤامرة أخي اشترك بيهه آنه أو هذا المسكين، وأشرت إلى راهي، ألم تقولوا إنها مؤامرة أمريكية - إيرانية - رجعية فما دخلي أنا بها)؟ فأجاب (المحكمة ستكشف ذلك صباحاً وإن شاء الله ماكو شي) ثم تأبط ذراعي وسار معي، وأشار للحراس أن يتبعوه فدفعوا راهي وساروا خلفنا واجتزنا حديقة الموت، ورأيت على أرضها بعض الجثث تنتشر هنا وهناك، وبرك من الدم فألقيت نظرة عليها

1 - خيراً لماذا تصيح؟

2 - لا شأن لك به

وأنا أقول، ما أظلم الإنسان، وما أقساه، وترحمت عليهم، ووصلنا إلى باب حديدي مغلق، وبعد أن طرقها الشاب بيده عدة طرقات، فتحها حارس يحمل رشاشاً، فدخل وأنا معه، ودخل بعدنا راهي وبقية الحرس، فكلم الحارس قائلاً له: (أعط غرفة زينة للأستاذ)، ثم خرج مسرعاً هو وبقية الحرس، فوجدت نفسي ومعي راهي وحارس هذا المبنى الجديد، فنظرت حولي لستطلع المكان فوجدتني أقف في باحة صغيرة على أرض مبللة بالماء، وأمامي مجموعة من (مبولات) تزيد على العشرة، مثبتة على الحائط، وأمامها من الجانب الآخر (المراحيض) وبعض المغاسل، وبينما أنا أستطلع المكان الذي سأنام فيه، إذا بصوت الحارس الجديد يقول (اتفضل أستاذ من هنا) وأراد أن يقودني إلى الزنزانة، ولكنني تذكرت حكايات من بعض خريجي هذا المعتقل، وكيف كانوا يعانون، ويتضايقون من عدم السماح لهم بالخروج من الزنزانات لقضاء (حاجتهم البشرية)، وكم كانوا يتلقون من الشتائم والسباب جراء هذا الطلب الإنساني فرجوت الحارس أن يسمح لي بقضاء الحاجة من باب الأحتياط فقد لا يسمح لي بالخروج إن ضمتني الزنزانة وأغلق بابها فاستجاب الحارس لرجائي، وغسلت وجهي، ثم قلت له إني مستعد، فقادني في دهليز طويل ضيق تقوم على جانبيه أبواب حديدية متقابلة، إنها الزنزانات، وقف الحارس أمام أحد الأبواب

الحديدية وفتح الباب بمفتاح أخرجه من جيبه وأشار بيده (تفضل أستاذ) فدخلت الزنزانة فوجدتها عارية تماماً فقلت له (ماكو بطانية) فقال (انتظر) ثم غاب وعاد بعد لحظة يحمل بطانيتين فرشتهما على الأرض، وكانت معي بطانية راهي وقبل أن يغلق الباب سألني (تطلب شيء آخر أستاذ؟) فقلت له شكراً.

وكان يقف بجانبي راهي يحمل لفته فقلت له (هاك آخذ بطانيتك) فرفض قائلاً: (تصبح على نور سيدنا)، فضحكت على كلمة (نور) هذه، فأي نور ينتظرني أو ينتظرك في الصباح، ثم أغلق الحارس الباب على زنزانتي، حيث لفني ظلام دامس وسار براهي ليدخله زنزانة أخرى، ورحت أتحسس زنزانتي لأعرف طولها وعرضها، وكان طولها لا يزيد على المترين ولا يزيد عرضها على المتر والنصف جلست على البطانية وشعرت ان التعب أخذ مني مأخذاً كبيراً وخلعت حذائي لأحرر قدميّ وكان قد ضايقني طوال هذه الساعات ولففته بمعطفي وصنعت منه وسادة، ثم تمددت، فشعرت براحة، إنه فراش وثير، واستعملت بطانية راهي غطاءً وأغمضت عيني طلباً للنوم وعبثاً حاولت فقد تعاصي عليّ ثم راح فكري المتيقظ يسرح مع الأحداث السريعة التي مرت بي منذ صباح هذا اليوم حتى هذه اللحظة التي أنا فيها، تضمني زنزانة مظلمة، وينتظرني مصير مجهول وقفزت أمامي

صورة أهلي، حيث أنهم وطيلة هذه المدة لم يمروا ببالي، ولكنهم الآن حضور، ماذا يحل بهم إن هم عرفوا بأمري ومكان اعتقالي وما يسمعون من إعدامات، وكم تمنيت أن يكون الأخ غالب العلوش قد دارى الأمر بلباقته المعهودة حتى لا يصل إلى علم والدتي العجوز المريضة نبأ اعتقالي، فهي لا تقوى احتمال هذه الصدمة واعترتني رعشة خوفاً على حياتها، وتمثلت صورتها أمامي شاكية باكية، فهي أم رؤوم حانية، أنفقت كل وقتها من أجل أولادها شأنها في ذلك شأن الأمهات الطيبات، وحضرت أيضاً صور أخوتي، وأخواتي وزوجتي، وأطفالي وأكبرهم لا يتجاوز عمره الثماني سنوات وأصغرهم عمره سنتان، وإن علموا باعتقالي، فما هي حالهم، وأي مصيبة هم فيها الآن وهم ينتظرون عودة الأب والابن والأخ والزوج، ورحت مع هذه الأفكار المقلقة وقد جافاني النوم رغم الإرهاق والتعب، وبقيت على هذه الحال، أقلب الفكر والاحتمالات، وسؤال يلح وراء سؤال فهل علموا باعتقالي؟ كيف تلقوا الخبر، خاصة وإن الراديو والتلفزيون يذيعان أسماء المحكومين بالإعدام أول بأول، فما يدريني أن أهلي الآن ينتظرون سماع أسمي مع كل وجبة يعلن عن إعدامها المذيع (لقد تم إعدام الخائن.. ونال جزاءه واستحق لعنة الأجيال وإلى مزبلة التاريخ..) أي نوم يزور عيني وقد

أطبقت هذه الأفكار على رأسي وراحت تقودني إلى متاهات لا نهاية لها، ولم تفارقني صورة والدتي وطفلي الصغير (سنان).. رباه كم طفل تيتمَ الليلة، وكم عائلة نكبت بعائلها، وكم أم ثُكلت بأبنها، وكم زوجة ترملت.. رباه لم كل هذا الظلم؟ أمن أجل أن يحكم الإنسان، ويطغى ويتجبر، ويجزر الضحايا، ويهرق الدماء، من أجل إشباع شهوة الحكم عند مجنون، ولم أعد احتمل التمادي في هذا التفكير، فقد أخذ مني التعب والإجهاد مأخذاً عظيماً فمثل هذه الأفكار توجع الرأس والقلب وترهق الجسد، فجلست على البطانية والظلام مطبق في الزنزانة ثم قمت واقفاً ومددت يدي إلى سقف الزنزانة فلم تصل إليه ورحت أقفز دون جدوى كل هذا من أجل إبعاد الأفكار السوداء والوساوس التي انتابتني ثم جلست وشعرت بالرطوبة تسري في جسدي فكل ما حولي مشبّع بها والبرد شديد، لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال وقد وضعت رأسي بين ركبتي، وإذا بصرير الباب الحديدي الكبير (باب المبنى) يبدد السكون عند فتحه، وسمعت صوت ارتطام جسم يقع على الأرض بشدة، ويعقبه وقع أقدام كثيرة تمشي في الدهليز وتقترب (أصخت السمع جيداً، وإذ بصوت يسأل (منو أنت)؟ فجاء صوت أجش (أنا المحامي عبد المحسن عبد الكريم) وعاد الصوت الأول يسأل

(أنت مو محسن الدوري المحامي؟)[1] فأجابه الصوت الأجش (نعم) فقلت في سري هذا الأستاذ عبد المحسن الدوري قد حل ضيفاً علينا في مثل هذه الساعة المتأخرة وبتهمة التآمر أيضاً، وسمعت صوت باب زنزانة يفتح ثم يغلق، وهكذا أدخل الأستاذ الدوري فيها ينتظر هو الآخر مصيره المجهول، ثم ران الصمت من جديد ورحت أفكر في زائر الفجر هذا (الدوري) متسائلاً هل له ضلع هو الآخر في هذه المؤامرة التي تجمع النقائض، والأضداد، وخليطاً غير متجانس من البشر، ثم حل السكون ثانية، ومر وقت لا أعرف مقداره، وإذ بصرير الباب الحديدي الكبير يفتح من جديد واسمع صوتاً نسائياً يأتي من بعيد (عيني آني سعدية) فيصرخ رجل (أنت سعدية بنت صالح جبر الخائن)؟ ولم تجبه المرأة إذ علا بكاء طفل، يبدو أنها تحمله معها، ثم أدخلت الزنزانة ولكن ظل بكاء الطفل يبدد سكون الليل، إن بكاءه مؤلم، يقطع نياط القلب، ولا يمكن احتماله، إذ يبدو أن عمره لا يزيد على الشهر. رباه ما ذنب هذا الطفل؟ كم يؤلمني بكاؤه وكأنه يحتج ببكائه على ما حل بأمه، وعلا صوت الأم تستنجد (عيني فدوة أريد شوية مي حار للطفل)[2] فيجيبها صوت من الدهليز (اسكتي

---

1 ـ ألست محسن الدوري المحامي

2 ـ أروح فداء لك.. أعطني قليلاً من الماء الساخن للطفل

نـامي مـاكو مـي) والطفـل مسـتمر فـي صراخـه، وتعـاود الأم الاستنجاد من جديد ويجيئوها نفس الجواب، ورحت أفكـر بـهذه المرأة متسائلاً ما شأنها بالمؤامرة الأمريكية ـ الإيرانية ـ الرجعية فتزج مع طفلها بهذا المكان؟ وأين زوجها؟ وعند مـن تركـت أطفالـها؟ وأسئلة حائرة كثيرة تلح على من أطلق لفكـره العنـان وهـرب مـن عينه النوم، إن الفكر يظل حراً، ولا يقوى أي طاغية أن يحبسـه، أو يغتاله، والفكر الحر هو الذي ساعد على تقويض دعائم الظلـم والطغيـان، فالتـاريخ حـافل بـالعبر لمن يريـد أن يعتـبر، وذهبـت محاولات الطغـاة والجبابرة بالخسـران، والأنكسـار، أمـام الفكـر الحر. أنا لا أعرف عـن المؤامـرة شيئاً وبطبعـي أكـره المؤامـرات، والانقلابـات التـي توصـل إلـى الحكـم الأنتـهازيين، والمقـامرين، والطغاة والقتلة والمجرمين الذين طالما لجئوا إلى الطغيان والإرهـاب تحت مسمى حماية (الثورة.) أية ثورة هذه التـي تخـاف مـن امـرأة وطفلها فتبادر إلى اعتقالهما؟ بئست هذه الثـورة وبئـس الثـوار..

وظـل الطفـل يصـرخ كأنـه ملسـوع لا يسـكت مـهما تحـاول الأم إسـكاته. يسـتريح قليـلاً ثـم يعـاود البكـاء والتشـنج، أمـن جـوع يبكـي، أم مـرض، أم احتجـاج علـى وجـوده وأمـه بـهذا المكـان؟ ويُفتـح البـاب الحديـدي مـن جديـد، وأقـدام تـدب فـي الدهلـيز وأبواب الزنزانات تفتح وتغلق، ويغيب وراء أبوابـها زوار جـدد،

واختلط عليّ العدُّ والحساب فقد كثر القادمون، إذ استمرت عملية إدخال الزوار إلى الزنزانة فترة من الزمن تقارب الساعة، عاد السكون من جديد إلا من صوت الطفل، وقد بدا عليه التعب، فصار صراخه أقرب إلى التنهد أو النشيج وسمعت صوت رجل يأتي من إحدى الزنزانة يستنجد، (يا جماعة أمروتكم أريد أطلع للمراحيض)[1] فلم يجيبه أحد، ثم يعاود الاستنجاد دون رد، ولكنه يستمر في رجائه، وأخيراً جاءه الرد يقول (ماكو طلعه إنجب نام) فسكت الصوت المستنجد، وخايلني أني أعرف صوت هذا المستنجد، وحاولت أن أتذكر صاحبه فلم أفلح، وعاود الصوت يطلب الخروج من جديد، ويتلقى نفس الجواب زاد لديّ التأكد أني أعرف هذا الصوت، وأخيراً صاح بأعلى صوته (ياجماعة أنسيتو مواقفي إلكم عندما كنت في المجلس العرفي، يا جماعة آني شاكر مدحت السعود؟) وندت عن شفتي صرخة مكتومة، إذاً هذا هو العميد شاكر مدحت السعود، يستنجد أخيراً حتى يخرج لقضاء حاجته، فجاءه الجواب سريعاً (خريّ على روحك ماكو طلعة يعني ماكو طلعة)[2] يا للإنسانية، ما أضيعها في هذا المكان الذي حلت فيه

1 ـ أستحلفكم بمروءتكم . . اسمحوا لي أن أذهب إلى المراحيض

2 ـ أعمل حاجتك على نفسك . . وليس هناك خروج

روح الشيطان الرجيم ، فهي التي تحكم وتتحكم ، وسكت العميد شاكر ولم يعد يطلب المساعدة فما عساه يفعل أمام هذا الجواب البليغ . ورحت أفكر بأمره أيضا متسائلاً عن اتهامه بالمؤامرة يا له من مسكين يتألم الآن دون شك فنداء الطبيعة غلاب لا يمكن مقاومته فرثيت لحاله .

وعجبت ليقظة فكري الذي ظل جوالاً لا يكل منذ الساعة التي اعتقلت فيها حتى هذه اللحظة ، وحواسي متيقظة ومشاعري متفتحة وجميع عقلي معي ، يعي ما يدور حوله ، فهذه ساعات أعيشها ليست كالساعات ، وتحتاج إلى كل يقظة ، وحضور فكر ، وتيقظ ذهن ، وعجبت لطاقات الإنسان كم هي هائلة ، إن الإنسان لا يعرف قوته وطاقاته إلا في مثل هذه الظروف العصيبة ، إن الله سبحانه قد وهب الإنسان القوة ، والصلابة والقدرة ، والجبروت ، وقد صدق الله العظيم في سورة الأحزاب (إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) وران صمت ، وخيم السكون على المكان ، ولم يسمع للطفل بكاء ، ولا للأخ العميد شاكر استنجاد ولا أعرف كيف تصرف مع (حاجته) وجافاني النوم فأنّى للنوم أن يداعب عيون من يعرف يقيناً أن مصيره سيتقرر عما قريب ، وأي نوم يدخل إلى

زنزانة عارية من الفراش، رطبة، قارصة البرد، وأي نوم يداعب جفون بطون خاوية، أرحت ظهري على أرض الزنزانة، وتوسدت (الحذاء والبالطو) ورحت أحدق في الظلام الدامس، استعرض شريط حياتي، وأسفت على المآل الذي صرت فيه، ثم أغمضت عيني، ورحت في إغفاءة بفعل السكون المطبق، والتعب، والإرهاق، ولكني انتبهت على وقع أقدام تقطع الدهليز ذهاباً وإياباً خطوات (بسطال ثقيل)[1] تضرب الأرض بقوة بوقع رتيب. ورحت أعد الخطوات، تقترب مني وتبتعد لمعرفة طول الدهليز، ولا أدري لم كان اهتمامي لمعرفة طوله وتوصلت إلى أن طوله يزيد عن الخمسين متراً، وغفوت مرة أخرى، فحلمت أن مسلحين يقودوني إلى مشنقة منصوبة في باحة، يتدلى منها حبل، ثم أوقفوني أمامها وراحوا يربطون يديّ من الخلف، وتقدم مني رجل يمسك بيديه غطاءً أسوداً أراد أن يدخله في رأسي، فرفضت، وقاومت قائلاً لا للغطاء، فأنا أريد أن أرى عملية إعدامي وكيف تشنقوني، فرفض وألبسني الغطاء بالقوة فلم اعد أرى شيئاً وقادني اثنان يمسكاني من تحت أبطي، ويدفعاني دفعاً لصعود سلالم خشبية، ووجدتني واقفاً على أرض خشبية، وراح أحدهم يربط الحبل في عنقي بقوة، ثم ابتعد

1 ـ بسطال: حذاء الجنود

وانفتحت الباب من تحتي فهويت، وهنا تنبهت مذعوراً على صوت التليفون يرن بشدة، ولأول مرة اسمع رنين جرس التليفون منذ أن جيء بي إلى هنا، ظل رنين التليفون مستمراً، ثم رفعت السماعة، وسمعت صوتاً يقول: (هلو.. نعم سيدي.. نعم سيدي) ثم أقفلت السماعة، وبعد لحظة إذا بصوت عالٍ يسمعه الجميع، كل من في الدهليز ونزلاء الزنزانات يعلن عن اسم شخص "فلان ابن فلان"، ونسمع أقداماً تتجه إلى زنزانة الشخص المطلوب ويستخرج منها، ثم يعلن المنادي وبصوت عال أيضاً ومسموع عن اسم آخر "فلان ابن فلان" وتتجه نحو زنزانته أقدام لاستخراجه هو الآخر، هكذا وعلى هذا المنوال نودي على سبعة أو ثمانية أشخاص، ممن يحتلون الزنزانات وحصل ضجيج جراء فتح وقفل أبواب الزنزانات وأقدام كثيرة تروح وتجيء سواء من الحراس أو الأشخاص المطلوبين، وقد مر بعضهم من أمام زنزانتي، فقد سمعت واحداً يقول "على كيفك أخوي عَوَّرت إيدي"[1] ويبدو أن الحارس قد شد بقوة على ذراع الشخص المساق.. ثم ابتعدت الضجة، وسمعت صرير الباب الحديدي الكبير يفتح ثم يغلق، وكأن الجميع قد خرج، ولم أعد اسمع شيئاً، نهضت واقفاً، وألصقت خدي على باب الزنزانة

1 ـ مهلاً معي فقد آلمت يدي

الحديدي. . علني اسمع شيئاً، فقد ران الصمت من جديد وبدأت الأفكار تشتغل إلى أين ذهبوا بهؤلاء؟ هل أفرج عنهم؟ هل طلع النهار؟ الظلام هنا حالك لا يسمح حتى برؤية عقارب الساعة. . وأسئلة أخرى أخذت تلح...

وبينا أنا في هذه الأفكار إذا بدوي الرصاص يمزق السكون ويرج المكان رجاً، زخات وراء زخات استمرت عدة دقائق، ثم أخذ يضعف ويتقطع إلى أن سكت تماماً وحل سكون مخيف. . وإذا بصوت ينبعث من الدهليز يصيح بأعلى صوت "هذه وجبة من الخونة قد ذهبت إلى مزبلة التاريخ" ثم أعقبها بقهقهة عالية. . وانشغل فكري مع هذه الوجبة، منذ قليل كانوا جيراناً لي ويحتلون الزنزانات المجاورة، هاهم الآن جثث تفترش أرض الحديقة، لم أعرف أحداً منهم. . ورحت أتساءل: هل حوكموا. ومتى جرت محاكمتهم وكيف؟ لقد نُقلوا من الزنزانة إلى ساحة الإعدام رأساً. . لا شك أن الحكم قد صدر عليهم مسبقاً حتى قبل اعتقالهم، وإنما جيء بهم إلى هنا للتنفيذ فقط، وما يعلن في الإعلام الحكومي هو كذب في كذب، فليس للمحكمة أي وجود. . ورن جرس التليفون من جديد وأخذ قلبي يضرب بعنف - إن رنينه نذير شؤم، إنه واسطة الموت، هو الذي يحمل أوامر الإعدامات، إن مصيرنا معلق في سماعة هذا

التليفون، وهـا أنا سأسـمع اسـمي مـع وجبة جديدة ترسـل إلى الموت، رفعـت السـماعة وطاحت قلوبنا نحن نزلاء الزنزانـات فـالكل يتوقـع أن يسـمع اسـمه، وأجـاب الصـوت نفسـه "نعـم سيدي.. نعم سيدي" ثم يغلق السـماعة، وتصيخ الأسـماع إنها لحظات قاتلة لا تحتمـل، إنها النطق بـالإعدام، ونطـق المنـادي بصوتـه الجـهوري الاسـم الأول وفتحـت زنزانتـه وأحضـر صاحبها.. كنت أعد الأسماء اسماً وراء اسم، وكنت أتوقـع سماع اسمي، فإن أخطئه المنادي، أو تخطاه، قلت فـي نفسي إن اسمي، سيجيء وراء هذا الاسم دون شـك، ونـادى على سبعة أسماء أو ثمانية، كانت أسماع كل منا متعلقـة بالحرف الأول من الأسم، فمنه يعرف المعني والمطلوب تنفيذ الحكم فيه.. إنـها عمليـة مرهقـة، تختلـط فيـها الحـروف والأسـماء وتضطـرب المشاعر، فـالكل يتوقـع أن يسـمع اسـمه، فإن تعداه المنادي الآن سيعلنه بعد حين.

اقتيدت هذه الوجبة من زنزاناتها، كما اقتيدت الوجبـة السـابقة وخرجـت مـن البوابـة الكبـيرة.. وظلـت أسـماعنا مشـدودة إلـى سماع دوي الرصاص، كما متوقـع فقـد عرفت الحكايـة أو اللعبـة تليفـون يدلـي بأسـماء مـن يـراد إعدامـهم ممـن يحتلـون هـذه الزنزاتات، ويقوم الحراس بعمليـة إيصالـهم إلى سـاحة الإعـدام

حيث التنفيذ. . ولكن كم يا ترى عددنا نحن نزلاء هذه الزنزانات؟

لم يطل انتظارنا، فقد لعلع الرصاص مزمجراً من الرشاشات، وحصد أجسام هذه الوجبة الأخرى. . ثم ران السكون قطعه صوت من الدهليز "هذه وجبة أخرى من الخونة تذهب إلى مزبلة التاريخ" أعقبها قهقهة عالية. . ولا أدري كيف تعلق فكري بعبارة "مزبلة التاريخ" فقد تكررت كثيراً وتساءلت: عما إذا كان للتاريخ مزبلة فإذا كانت له مزبلة فله جنان وقصور. . أيضاً حسب نفس المنطق، وتساءلت عمن يذهب إليها، ويتمتع بمباهجها، ومن الذي يوزع الناس بين المزبلة والجنة، وهل نحن البشر نملك هذا الحق؟ يا لها من سخرية هذه وجبة أخرى حصدت أرواحها وسيعقبها وجبات فالزنزانات ما زالت تضم الكثير من المتاعيس.

. وتعلقت الأسماع بجرس التليفون انتظاراً لرنينه. عُرف الأسلوب، ينادى على الأسماء، تساق من الزنزانات إلى مكان الإعدامات ويتم إعدامها رمياً بالرصاص. . هكذا بكل بساطة. . ولا يستغرق من الوقت أكثر من نصف ساعة بين سماع الصوت من خلال التليفون وبين عملية التنفيذ، فكل شئ مهيأ ومرتب ومعد سلفاً، ولا داعي لتضييع الوقت في محكمة،

ومحاكمة . . إن نصف ساعة ليست بالوقت الطويل على المحكوم عليه بالموت، إنه لا يتعذب كثيراً فهو يستطيع أن يتحمل نصف الساعة هذه، وبعدها تجيء الراحة الأبدية، ويكون الخلاص ورن جرس التليفون، وتعلقت الأسماع بالحرف الأول والاسم الأول، إن الأسماء تتكون من حروف وقد تتشابه فإذا ما نطق المنادي اسم (محمد) مات قلب كل من كان اسمه الأول محمد وإلى أن يكمل المنادي بقية الاسم ترد أرواح وتزهق قبل الموت أرواح، فما أقساه من عذاب، وما أطوله من دهر، وما أذلها من حياة، وعلى نفس النسق والأسلوب، نطق المنادي وبأعلى صوت اسماً وراء اسم، وأخرجت كوكبة من زنزاناتها، واقتيدت إلى الخارج، وأغلقت الباب الكبيرة وانتظرنا دوي الرصاص، ولم يطل انتظارنا، فانهمر دقائق، وما أن سكت حتى صاح من الدهليز صوت (هذه وجبة جديدة من الخونة تذهب إلى مزبلة التاريخ) ثم يعقبها بقهقهة عالية، ثم يقوم صاحب الصوت يتمشى في الدهليز، يضرب بقدمه الأرض بقوة، يذكرنا بالمصير المنتظر. . ويرن جرس التليفون واسمع اسم (محسن الدوري) فتأسفت لحاله ومصيره، ويخرج الدوري من زنزانته، ويسرح خيالي مع الوجبة الجديدة، ومعه أنه الوحيد الذي أعرفه من بين الأسماء التي أعلنت، وهو زميل مهنة، وإن كان لكل منا اجتهاد

وطريق، وهو الآن يواجه الموت وعما قريب يلقى وجه ربه، وحزنت من أجله، وترحمت عليه ورثيت لعائلته، فقد اعتبرته في عداد الأموات ورحت اردد (انتم السابقون ونحن اللاحقون وأنا لله وأنا إليه راجعون) واقتيد مع الآخرين وأغلقت البوابة الكبيرة ولم يطل الأنتظار، فقد لعلع الرصاص وانتهي كل شئ، وصاح الصوت (هذه وجبة أخرى من الخونة ذهبت إلى مزبلة التاريخ) ويعقبها بقهقهة تحرق الأعصاب وتثير الغضب، وراح خيالي مع هذا المقهقه صاحب العبارة التقليدية بعد كل وجبة تُعدم ولا أدري لم تخيلته واحداً من جلادي الثورة الفرنسية، والأشداء الغلاظ المكلفين بآلة (الجيوتين) التي تطيح برؤوس الثوار، إني أتخيل شكله، بوجه قاس، عابس، وعينين غائرتين، وفم كريه، وشارب كثيف يغطي شفتيه، لقد شاهدت أشباهاً له في أفلام سينمائية تناولت قصص الثورات الدموية في فرنسا وأمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولا أبالغ لو قلت أني تمنيت الموت واستعجلته تخلصاً من صاحب هذا الصوت الكريه وقهقهته البغيضة ووقع أقدام بسطاله الغليظ، وعدت أنتظر رنين جرس التليفون المعتاد، وطال انتظاري هذه المرة. انتظار فيه قلق، يشوبه رجاء، هل اكتفوا؟ هل ارتوت نفوسهم.. أم ما زالت تطلب المزيد، وإلى أي حد،

طال الانتظار حتى حسبته دهراً، ولكنه انتظار أنعش الآمال، فلربما قد اكتفوا بما جزروا، ولست أدري فقد أكون أنا الحي الوحيد ممن بقي في هذا الدهليز، وهنا تذكرت راهي فلم يرد اسمه مع الوجبات السابقة وهو الآن قابع في زنزانته ينتظر مع المنتظرين. وسمعت ضوضاء، وأقداماً كثيرة تدب في الدهليز وتقف عند باب زنزانتي فتساءلت هل تبدل الأسلوب وأين التليفون؟ وهل سيأخذون الباقين وجبة واحدة؟ كنت في هذا ومثله، إذ بيد تمتد من فتحة صغيرة في أعلى باب الزنزانة وصوت يصيح من وراء الباب (أخذ)، ورأيت شيئاً أسود، بحجم الكف ممدوداً من الفتحة لم استطع أن أتميزه، فتلكأت عن مد يدي، وكنت جالساً على الأرض، ولما طال تباطئي، صاح بي مرة أخرى بصوت أعلى وبلهجة آمرة (أكللك أخذ زقنبوتك ما تسمع أنت أطرم؟)[1] وهنا مددت يدي إلى الشيء الأسود وأخذته منه، ثم سحبت يدي من الفتحة، تحسست هذا الشيء فإذا به صمونة[2] يابسة كالحجارة، إذا هذا هو الزقنبوت ولكن أي زقنبوت، هل هو زقنبوت الفطور، أو الغداء، لا أدري فقد ضاع الزمن هنا وحتى الساعة لا تعطيك جواباً عن الوقت لأن الرؤية

1- اقول لك اخذ طعامك. الزقنبوت كلمة غير عربية تعني السم

2- نوع من أنواع الخبز

معدومة، وليس معي كبريت أو ولاعة، وحتى لو كانتا معي فستصادر فقد فتشوا جيوبي وأخذوا كل محتوياتها.

عند وصولي إلى قصر النهاية بالأمس. وُزع الزقنبوت على جميع الزنزانات، فقد كنت أسمع العبارة نفسها أمام كل زنزانة (أخذ زقنبوتك) ثم هدأت الحركة بعد أن تم توزيع الصمون اليابس، وسمعت صوتاً من الدهليز ينادي (هاي آخر وجبة إلكم بالدنيا أكلوها هنيئاً مريئاً) وأعقبها بقهقهة. إنه نفس الصوت الكريه الذي لازمنا بعبارته عن التاريخ ومزبلته، لا أدري هل أكل المتاعيس زقنبوتهم أم لا؟ أما أنا فقد وضعت الصمونه جانباً وجلست على الأرض أضحك مع نفسي على هذه المهزلة التي تدور فصولها أمامي، وأقول أن هؤلاء الجلادين رحماء. كرماء، دون شك، إذ أنهم يطعمون ضحاياهم قبل إعدامهم تماماً كما يفعل الجزار حينما يسقي الضحية ماءً قبل ذبحها، وها هم جلادونا يقدمون وجبة طعام أخيرة قبل تنفيذ حكم الإعدام. منتهى الرحمة، والشفقة، تناولت الصمونة اليابسة فوجدتها باردة كالثلج، شممتها فلم أجد لها رائحة، كنت جائعاً فما دخل طعام إلى جوفي، من صباح أمس حتى الساعة، وضعت الصمونة في فمي وعالجتها بأسناني فاستعصت على الكسر، ولم استطع أن أقضم منها كسرة، فأعدتها إلى مكانها يائساً، وهكذا

حرمت من تناول الزقنبوت، وسيغفر الله لي وللجلادين لو لاقيت وجهه الكريم وأنا جائع. وطالت فترة الغداء، وظل التليفون ساكتاً فليس من العدل أن تستمر المحاكمات والإعدامات والناس لم تنته من طعامها بعد؟ تعبت من الجلوس على الأرض الباردة، فأسندت ظهري إلى الحائط ولم أحتمل أكثر من دقائق فقد سرت الرطوبة إلى كل أعضاء جسمي، وشعرت بقشعريرة وفضلت أن أنام فتمددت على البطانية، وقد استحالت رجلاي إلى قطعة من الجليد، فلم تقني بطانية راهي من البرد والرطوبة.. شعرت بحاجة إلى التبول، وفكرت أن أستنجد بالحارس كما فعل الأخ العميد شاكر وعندما تذكرت جواب الحارس له طردت الفكرة، وآثرت أن أتصبر انتظاراً للفرج، ومر الوقت ثقيلاً والصمت المهيب يخيم على الدهليز، ويبدو أن الجماعة ما زالوا مشغولين بطعامهم، وحتى الأقدام الثقيلة لم تعد تدب، فأنا لا أسمع غير صوت شهيقي وزفيري، ودقات قلبي يضرب بإيقاع منتظم، فلم يختلج هذا القلب، أو يضطرب كما كان يفعل بي دائماً وعجبت من أمر هذا القلب فبقدر ما كان مشاغباً، فوضوياً، متقلباً، إذ به الآن منتظم مريح، بلا ضربة زائدة، ولا اضطراب مزعج، فحمدت الله. ألحت عليّ المثانة الممتلئة، وعاودتني فكرة الاستنجاد ولكني طردتها، وأخيراً توصلت إلى

الحل الأمثل وهو أن أضيف إلى ماء الزنزانة ماء مثانتي، وهذا ما فعلت، فما حيلتي، وما عساي أن أصنع، واسترحت بعدها، كأني أزحت جبلاً عن كاهلي، وراح فكري إلى الأخ شاكر الذي سكت عن الاستنجاد فقلت لا بد أنه قد فعل مثلما فعلت وهذا هو المخرج الوحيد. وهنا رن جرس التليفون وانقطعت حبال الآمال، أنه نذير الموت والدور. . آت ولكل أجل كتاب، وسمعت الصوت التقليدي يرد (نعم سيديّ نعم سيدي) بانتظام وبنبرة عسكرية وتنتهي المكالمة وتشرأب الأعناق ويخيم سكون رهيب، وكأنه سكون الموت، فهذه اللحظة على قصرها، كأنها الدهر، وأصخت السمع وجاء الصوت عالياً (فلان بن فلان الفلاني)، لم أكن أنا المطلوب ولا واحداً أعرفه ثم أعقب بصوت آخر (فلان الفلاني) فتعجبت من أن المنادي قد ذكر الاسم واللقب فقط دون الاسم الثلاثي، فقلت، ألا يحتمل أن تتشابه الأسماء، وتختلط ويروح إنسان بريء ضحية آخر، وهذا ما حصل فعلاً فقد تم إعدام بعض، بدل بعض لتشابه الأسماء، ولم يكتشف هذا الخطأ إلا بعد فوات الأوان. ونادى المنادي على العدد المطلوب كما فعل في كل مرة واقتيدوا من زنزانتهم وأخرجوا من البوابة الحديدية ورحت أنتظر ومر الوقت ثقيلاً، وأنا أترقب صوت الرصاص ولم يطل انتظاري فها هو الرصاص

يلعلع ويزمجر دقائق ثم ينقطع وانتظرت الصوت الكريه يقول (عبارته المأثورة) ولم يطل انتظاري أيضاً فها هو يصيح (وهذه وجبة أخرى من الخونة تذهب إلى مزبلة التاريخ) ثم يعقبها بقهقهة ويخطر ببسطاله في الدهليز شأنه مع كل وجبة يتم إعدامها، ولم يطل الانتظار أيضاً فها هو جرس التليفون يرن من جديد، وداخلني شعور أكيد أن اسمي سيكون مع هذا الرنين لا محالة فقد تأخر دوري أكثر من اللازم، ولا بد أن يجيء، وهاهو آت مع هذا الرنين، ورفعت السماعة وتكررت العبارة المألوفة (نعم سيدي) حتى أنني قلتها قبل أن ينطق بها الصوت، ثم وضعت السماعة وبدأ الصوت ينادي الاسماء وذكر الاسم الاول، وذكر الاسم الثاني، فقلت انا الثالث، (ومر الثالث) فقلت الرابع ومر الخامس، حتى الاسم السابع، وانتهى النداء، غضبت لأن اسمي لم يرد. أين اسمي؟ ولم كل هذا التأخير؟ ولماذا هذا العذاب ؟ الم يؤت بي الى هنا للاعدام ؟ وهذه الوجبات تتلاحق وجبة وراء وجبة، فمتى يحين دوري ؟ ولماذا يؤخرونني، ايريدون سحق أعصابي، والتلذذ بتعذيبي، وما أدراهم أني خائف، أو مضطرب، أنا ميت منذ الأمس، وما حياتي إلا فضلة وزيادة.

وأخرجت الوجبة الجديدة وتم إعدامها كما حصل مع الوجبات السابقة، وتساءلت مع نفسي، أيريدون أن يجعلوا مني

(مسك الختام) وطال سكوت التليفون أكثر من المعتاد وآذاني صاغية لالتقاط رنينه، ولكنه لم يفعل أفقلت لقد تمّ، إعدام وجبتين اثنتين بعد الطعام (الزقنبوت) فهل اكتفوا بهما؟ وانتعشت الآمال من جديد، ولكن كيف يكتفون ولما يزل في الزنزانات بقية من المنتظرين وأنا واحد منهم، ألم يقل لي شاب الأمس الذي جاء بي إلى الزنزانة أن محاكمتي غداً، وبينما أنا كذلك والتعليلات تترى سمعت الباب الخارجي الكبير يفتح، ويدخل كثيرون اسمع لهم ضجيجاً عالياً وأقداماً مسرعة تدب في الدهليز وتفتح أبواب الزنزانات الواحدة بعد الأخرى، أسمع الأقدام الكثيرة تقترب مني، وتقف عند زنزانتي ويفتح بابها، ودخل بعض النور إليها، فتبينت شخصاً يرتدي ملابس الجنود ماسكاً باب الزنزانة المفتوح، وبجانبه ثلاثة أشخاص ينظرون إليّ دون أن يتكلموا. رحت أنقل نظري بين الجندي وبينهم انتظاراً لقول، أو فعل، ومرت لحظة ثم سألني واحد من الثلاثة (أنت فلان الفلاني؟) فأجبته (نعم) فقال (كوم البس اهدومك واستعد) ثم التفت إلى الجندي وقال له (جيبه بعدما يلبس)[1] لبست حذائي ومعطفي، وخطوت إلى خارج الزنزانة حيث الدهليز الطويل، فتأبط الجندي ذراعي، وقادني، فقلت في نفسي إنها النهاية لا

---

1 ـ اجلبه معك

ريب، ها أنا سائر إلى الموت كما سار قبلي من هذا الدهليز، وبدأت أحسب نصف الساعة المقدرة لي إلى حيث ساحة الإعدامات، لم يختلج لي عضو، أو يضطرب لي فؤاد، كنت ثابت الخطوة أسير مع الجندي دون تلكؤ، أو تباطؤ. فأنا أعرف أن المصير المحتوم واقع لا محالة، فالمقدر لا شك واقع، وصلت إلى أول الدهليز، حيث باحة صغيرة، وجدت فيها زملائي من نزلاء الزنزانات، وقد مسك بذراع كل واحد منهم جندي، وقفت مع الواقفين انتظاراً لتجمع الباقين، وبين لحظة وأخرى ينضم إلى حلقتنا قادم جديد من أول الدهليز إلى الباحة (التي ينتشر على جانبيها المبولات والمراحيض) وفي هذه الباحة المكشوفة السقف رأيت ضوء النهار، رفعت ببصري نحو السماء فوجدتها صافية، إنه نهار مشمس، ما أروعه يوماً من أيام كانون، والساعة كانت تشير إلى بعد الرابعة بقليل إذاً نحن في العصر، أو قريب منه، ورحت أتفرس في الوجوه (وجوه زملائي المعتقلين) فلفت نظري أزياؤهم المختلفة، فهذا يرتدي البيجامة والحذاء، وهذا يلبس الدشداشة والنعال، وهذا يلبس السترة والبنطلون ولكنه بدون ربطة عنق، وهذا يلبس الصاية وفوقها معطف وينتعل نعالاً برجليه، وهذا يلبس الصاية واليشماغ (بدون عقال) وهذا جندي بملابس الميدان من دون سدارة، إنها

أزياء مختلفة، وكنت أنا بكامل قيافتي بالبدلة الكاملة والرباط وفوقها المعطف، إن هيئة ملابسهم هذه تدل على أنهم قد اقتيدوا من منازلهم أو أماكن تواجدهم بنفس الحالة التي كانوا عليها ولم تعط لهم فرصة ارتداء الملابس المناسبة وأخذت أتفرس في الوجوه وأتفحصها علني أعرف أصحابها. كانت الوجوه شاحبة مصفرة، وعيونها متورمة، ومحمرة من انعدام النوم، فلا شك أن الجميع بات سهراناً لم يذق طعم النوم، أجَلتُ نظري فيهم واحداً واحداً كان عددنا سبعة عشر شخصاً وكنا نقف على شكل دائرة. تفحصت الواقف على يميني فلم أعرفه، ثم الذي يليه فلم أعرفه، وكان الثالث العميد شاكر مدحت السعود وكان يلبس السترة والبنطلون دون ربطة عنق، ولم أعرف الآخر ثم عرفت الأخ حسن العكيلي (من الكاظمية) ولي به معرفة سابقة وكان يرتدي السترة والصاية واليشماغ ولم يلبس العقال، وكان وجهه مشرباً بالحمرة، ثم استعرضت بقية الوجوه فرأيت الأخ عبد الحسين كمونه (من كربلاء) وكان يرتدي المعطف فوق البيجامة، ولم أرَ سعدية، ثم التفت إلى يساري وإذا براهي يقف بجانبي، يا سبحان الله هل الصدفة وحدها أوقفته بجانبي أم أنه فعل هو ذلك، إنه بجانبي منذ الأمس، لقد كان شاحباً، كانت الوجوه كلها شاحبة والنظرات زائغة قلقة لم يتكلم أحدنا مع الآخر، وقد

تبادل الجميع النظرات فكل يريد أن يعرف بقية زملائه فالجميع تفحص الجميع بالنظر فقط بدون كلام، فالموقف لا يحتمل الخطأ، وقفنا هكذا فترة من الزمن ثم فتح الباب الكبير، ودخل شاب يرتدي بدلة مدنية وأشار للحراس بيده أن (تعالوا جيبوهم) فصاح بنا أحد الحراس (يالله إمشوا واحد ورا واحد) وسار أمامنا حارس مسلح برشاش ومشى خلفه أحدنا وهكذا انتظمنا واحداً وراء الآخر كطابور المدرسة، وكانت خطوتنا منتظمة، وكم هو جميل أن نمشي إلى الموت بخطوة منتظمة، فالنظام مطلوب حتى في الموت، وما يدرينا أن ستصعد أرواحنا بعد قليل إلى بارئها بترتيب، ونظام، حتى لا تشكو إليه سبحانه من سوء نظام أهل الأرض، خاصة أولئك الذين يحكمون عراقنا الحبيب فإنهم والحق يقال، نظاميون حتى في الموت. سرنا في طابور، ومررنا بساحة الإعدامات، إنها تبدو الآن واضحة جلية في وضح النهار، ساحة الإعدامات هذه حديقة كبيرة تقع أمام مدخل قصر النهاية يغطيها العشب، مستطيلة، يبلغ طولها حوالي سبعون متراً وعرضها أربعون متراً، اخترق طابورنا الحديقة ورأيت كما رأي الجميع أجساماً متناثرة تفترش الأرض، هي جثث الوجبة الأخيرة التي تم إعدامها منذ حين، حرصت أن أتمعن جيداً في هذه الجثث وكأني أخاطبها من أننا على الأثر، وقد كانت لأشخاص بأعمار

مختلفة، وملابس متباينة، يفترشون الحديقة، بأوضاع مختلفة، فهذه جثة جندي يرتدي ملابس الجنود وبرجله بسطاله وينام على ظهره وقد اتجه بوجهه إلى السماء، كان وجهه واضحاً وغير مغطى بعصابة، وبالقرب من هذا الجندي تضطجع جثة على وجهها، وكان صاحبها يلبس الدشداشة وحافي القدمين، وهذه جثة تبعد عن الجثتين قليلاً لشخص ينام على جنبه، متكوراً وقد أدخل رجليه في بطنه، وضم يديه إليهما، وأدخل رأسه في صدره، وتلك جثة أخرى تبعد أمتاراً بوضع آخر فكل ينام أو يموت على الجنب الذي يريحه، وهذا أمر لا دخل للجلادين فيه فالجلاد يطلق الرصاص على الضحية، ثم يترك له حرية اختيار الوضع الذي سيلاقي ربه فيه. لم أكن وحدي الذي ينظر ويتمعن في الضحايا، فقد فعل ذلك كل الطابور، وكان الحارس الذي يسير في مقدمة الطابور قد تمهل بمشيته وأبطأ ليعطينا وقتاً أطول لنُمَلي عيوننا من هذا المنظر، ونستوعبه لغرض واضح، وكان راهي يمشي أمامي مشدوهاً مأخوذاً بهذا المشهد المرعب، وكان يسحب رجليه سحباً، وأعترف أن المنظر كان مرعباً تقشعر له الأبدان وتخشع لهوله القلوب، فمن يا ترى يقوى على النظر إلى جثث مخضبة، مبعثرة، ولا تعتريه رعشة أو رجفة، شعرت وكأن جثث القتلى تقول لنا إنكم إلينا صائرون، فها أنتم إلى

(الجزار) متجهون ، وسيرسلونكم إلينا بعد قليل ، وشعرت أن الزمن قد توقف ونحن نمر بهذه الأضاحي ، لم يكن المشوار طويلاً ، فالمسافة بين أول الحديقة من جهة الزنزانات حتى مدخل قصر النهاية لا تزيد على السبعين متراً ولكنها لا تريد أن تنتهي ، ولا أعلم كم مضى من الوقت حتى وصلنا أمام المدخل الرئيسي لقصر النهاية ، وكان يجلس على سلالم المدخل مجموعة من الشباب المسلحين بالرشاشات والمسدسات ، وداخلني شعور أن هؤلاء هم جلادونا والمكلفون بقتلنا ، ها هم يستقبلوننا بنظرات قاسية وكأنهم يستعجلون إزهاق أرواحنا ، صعد الحارس الذي يتقدم طابورنا وصعدنا خلفه ، ودخلنا إلى الصالون الكبير وأوقفنا في منتصف الصالة على شكل دائرة يحيط بنا حراس مسلحون ووقف كل حارس إلى جانب واحد منا ورحت أتفرس في وجوه الشباب ، كانت نظرات بعضهم تفصح عما في نفوسهم من سرور وابتهاج ، كأنها تقول أننا سنقتلكم لأنكم خونة تستحقون القتل ، ولفت نظري أن نظرات بعضهم فيها ألم ، ومواساة ، وكأنها تشفق على حالتنا ، فالعيون تشي بما يختلج في النفوس ويضطرم ، فليس كل هؤلاء الشباب موافقين على هذه المجزرة التي تجري أمام عيونهم ، هكذا قرأت في نظرات بعضهم ولكنهم إرادة الحزب وأوامره ولابد أن تطاع وتنفذ والويل لمن

يتقاعس أو يتباطأ عن التنفيذ فمصيره معروف، وتتلفقه تهمة (مرتد، ومنحرف، ومخرب) وقد حصل فعلاً كثير من هذا القبيل لحزبيين لقوا حتفهم بهذه التهم الشنيعة ثمناً لاستيقاظ الضمير، وقفنا وسط الصالة ننتظر، ومرت لحظات وإذا بمجموعة من عسكريين ومدنيين تخرج علينا من غرفة جانبية وتتجه نحونا، وسمعت الحارس الذي قادنا إلى هذه القاعة يقول (هذا سيادة رئيس المحكمة لحد يتحرك)[1] واتجهت أنظارنا نحو رئيس المحكمة وكان يتقدم المجموعة، وإذ به ضابط برتبة رئيس أول، أسمر اللون، مربوع القامة ممتلئ الجسم، لونه يميل إلى الصفرة، ويتدلى من وسطه مسدس، وكان حاسر الرأس، هذا إذاً رئيس المحكمة الخاصة الذي سيحاكمنا، هذا هو (طه الجزراوي)، وقف غير بعيد من دائرتنا ووقف بجانبه وخلفه مجموعة من الأفندية والضباط، ولم أعرف أحداً منهم سوى (محمد فاضل) الذي كان عضواً في محكمة الثورة التي حاكمت العميد عبد الهادي الراوي وكنت وكيلاً عنه في دعوى أتهم فيها مع مجموعة من عسكريين ومدنيين بالتآمر لإطاحة بنظام البعث).

إني أراه الآن يقف بجانب طه الجزراوي ويحمل أوراقاً كثيرة فقلت ماذا يعمل هنا، فهو ليس عضواً في هذه المحاكمة فالعضوان

1 ـ لا يتحرك أحد

الآخران هما ناظم كزار، وعلي رضا، ثم استدركت ما أغباني! إني أبحث عن الصفة الرسمية، والقانونية، لهذا الشخص، ولمثله، وعن معنى وجوده هنا، فإن لم يكن هنا الساعة، فأين يكون إذاً! هذا هو مكان القتلة، تفرست في وجوه الآخرين من مدنيين وعسكريين ولفت نظري أن محمد فاضل (أعدم مع ناظم كزار ومجموعة من البعثيين بتهمة التآمر سنة 1973) ينظر نحوي بطرف عينه، وكأنه لا يريدني أن أشعر بذلك، مرت لحظات والكل ينظر إلى رئيس المحكمة ونطق أخيراً الجزراوي، فقال موجهاً كلامه إلينا (إسمعوا.. انتو مشتركين بالمؤامرة القذرة اعترفوا أحسن إلكم.. أمامكم ربع ساعة حتى تعترفوا.. ومصير اللي ما يعترف مثل هذوله اللي شفتوهم الآن معدومين بالساحة.. إسمعتو؟) ثم سكت، هذا ما نطق به رئيس المحكمة التي ستحاكمنا بالعدل والقسطاس، ووجدتني أردد مع نفسي (أكلناها والله، رحنا بشربة ميه، و الله يرحمنا) ثم التفت طه الجزراوي إلى محمد فاضل وقال له: (وزّع عليهم الورق) هنا صاح العميد شاكر مدحت السعود (يا جماعة، آني ما مشترك بالمؤامرة) فما أنهى جملته، حتى أنقض عليه بعض الواقفين وأخذوا يضربونه على وجهه ضربات سريعة (سطرات ولكمات) والرجل يحجب بيديه دون جدوى، فرثيت لحاله. يُضرب لأنه

تجرأ وقال شيئاً أمام رئيس المحكمة ، وكان عليه أن يتأدب في حضرته ولا يفتح فمه بكلام يدافع فيه عن نفسه ، إنه لم يقل أكثر من أنه لم يشترك في المؤامرة ، فمن حقه أن يقول ما يشاء في موقف كهذا . . ضَرب الرجل بشدة وسرعة ، فتراجع إلى الخلف اتقاءً للضرب ، ولملم نفسه ، ووقف ساكتاً ، وهنا انبرى حسن العكيلي[1] قائلاً : (يا جماعة آني أمي ما أعرف أكتب) . فابتسمت في سري لكلمته ، فقد هزتني من الأعماق لأنها كانت صادقة وبريئة ومفحمة ، فرئيس المحكمة يريد اعترافاً خطياً ، والرجل لا يعرف القراءة والكتابة ، وأعلنها جريئة وصريحة ، أعجبتني ، ولم يعتد عليه أحد كما اعتدى على العميد شاكر فما عساهم يفعلون أمام هذه الحقيقة ، هل يُضرب لأنه أُمي ! فسكتوا أمام جوابه المفحم ، وشعرت أنه قد انتصر عليهم .

أعطى محمد فاضل ورقة بيضاء لكل واحد منا ، وبعد أن انتهى من توزيع الأوراق قال طه الجزراوي (أمامكم ربع ساعة للاعتراف وعدكم الأوراق ياللـه اعترفوا أحسن الكم) ثم انسحب عائداً من حيث أتى هو وبعض ممن جاءوا معه ، ودخلوا إلى إحدى الغرف الجانبية ، واندفع نحونا الحراس يدفعوننا إلى جدران الصالة بحيث يقف كل واحد ووجهه إلى الحائط ، ويبعد

1 ـ أحد المتهمين

عن الآخر ثلاثة أمتار تقريباً، ووقف بجانب كل واحد منا حارس يحمل رشاشة ومسدس يمنعنا من الالتفات يمنة أو يسرة أو إلى الخلف وإن فعل، يعالجه بضربة من كعب رشاشته أوكفخات[1] على رأسه، وتذكرت جماعة الأمس حينما جيء بي إلى هذا المكان، فها نحن نقف في مكانهم، وما أشبه الليلة بالبارحة، وتذكرت الرجل الشاحب صاحب الزبون والسترة الذي اختفى. مسكت الورقة بيدي ورحت أتساءل ماذا أكتب! وبِمَ اعترف! وتذكرت المرحوم الرائد عبد الستار وحواره مع الجماعة، وكيف كان مصيره، فقد أعدم لأنه علق على أمر بكلمة (سخيف)، فما هي يا ترى جريرتي التي أعدم من أجلها؟ توصلت إلى يقين أن الجماعة قد جاءوا بي إلى هنا من أجل إعدامي، والتخلص مني، وأن زجي واتهامي بالمؤامرة المزعومة إنما هو تبرير ليس غير، تماماً كما فعلوا مع الرائد عبد الستار، صحيح إنني ضد حزب البعث، وسياسته، ولكن هل استحق على موقفي هذا الإعدام؟. وبدءوا يكتبون اعترافاتهم، وحانت مني التفاتة وإذا براهي يقف بجانبي، ولاحظت أنه لا يكتب شيئاً فقد مسك الورقة والقلم بيده وراحَ ينظر نحوي بطرف خفي، ويخاف أن يلتفت إلى الوراء (خوفاً من الكفخات) صاح به الحارس الذي يقف بجانبه

1 ـ ضربات كف

(ما تكتب إشما لك)[1] فأجابه بصوت خفيض (أغـاتي شكتب)[2] فرد عليه (أكتب عن دورك بالمؤامرة) فأجابه (يا مؤامرة أغـاتي) فأجابه هـذا (عجايب علويش جايبيك لعـد)[3] فأجابه المسـكين (والله أغاتي ما أدري) وهنا ضاق به الحارس ذرعـاً فصاح به تكتب ما تكتب يطبك مرض.

وبعد تفكير طويل وحيرة، أسندت الورقة على الحائط وأنا أسترجع، وأحوقل، وأقول (ماذا تنفع الكتابة عند من لا يقرأ ولا يكتب)، يا لها من مهزلة وقررت أن أمتنع عن الكتابة، ثم تراجعت، وقلت في نفسي لم لا أكتب وأن كانوا لا يقرؤون، ولكني أكتب لمن يريد أن يقرأ من بعدهم وكتبت:

(أنا فلان الفلاني جيء بي إلى هذا المكان ولا أعلم سبباً لهذا المجيء حتى الآن، فإن كان من أجل المؤامرة الإمبريالية الرجعية الإيرانية كما وُصفت، وكما سمعت عند الإعلان عنها من الإذاعة، فأنا رجل معروف الاتجاه والانتماء العقائدي، أنا رجل وحدوي اشتراكي، واربأ بنفسي وعقيدتي وشرفي، أن أتورط، وأكون ضالعاً بمثل هذه المؤامرة، والله على ما أقول شهيد..) ثم

1 ـ ما لك لا تكتب

2 ـ مولاي ماذا أكتب

3 ـ لماذا جاءوا بك إذاً

سلمت الورقة إلى الحارس الواقف بجانبي الذي كان يراقب كتابتي، فأخذها ونظر فيها ثم قال بنبرة فيها تعجب وتهكم (هذا هو اعترافك؟) فأجبته بإيماءة من رأسي دون كلام، فسكت وظل ماسكاً الورقة يعيد قراءتها وينظر إليّ كأنه غير مصدق، وهنا رأيت شخصاً مقبلاً نحونا يحمل ورقة بيضاء مع قلم ويقف عند كل واحد منا فيسأله شيئاً ثم يكتبه في الورقة إلى أن وصل إلى راهي فسأله (وين تسكن وشنو عنوانك ورقم بيتك بالضبط)[1] فتلعثم راهي ثم ذكر له عنوانه ورقم بيته، ثم جاء ووقف عندي، وسألني (أين تسكن وعنوانك ورقم بيتك أستاذ) فأجبته أني أسكن بحي الصليخ، ولكني لا أعرف رقم بيتي (لم أكذب عليه) فالحقيقة أني لا أعرفه، أنزعج من إجابتي، فما كان إلا أن أجاب بعصبية (لوين نودي جثتك. . لعد نرميها بالدرب؟)[2] لم أتمالك نفسي من الضحك قائلاً له بسرعة وبسخرية (شنو الفرق. . يعني يهم الشاة أن تصلخ بعد ذبحها) فأجاب (عجايب. . زين. . زين) ثم سار في طريقه يكتب عناوين الباقين كيما ترسل جثثهم بعد إعدامهم وحتى لا ترمى في

1 - أين تسكن وما هو عنوانك

2 - إلى أين نوصل جثتك. . يعني نرميها بالشارع!

الطريق وقد حصل فعلاً أن جيء بجثة أحد المعدومين ملفوفة بكيس نايلون ورميت أمام دار اشتبه بعنوانها كما علمت بعد حين. أنهى هذا الشاب جولته علينا ثم دخل إحدى الغرف.
أدرت وجهي إلى الحائط ورحت أفكر بما قاله هذا الشاب الذي لم أعطه عنواني، وتساءلت عن مصير جثتي، هل ترمى في الدرب. فمططت شفتي وأنا أقول (الجايه الله حياه الله). ونظرت في ساعتي لأعرف الوقت فإذا بزجاجتها منزوعة من مكانها، نظرت إلى الأرض فوجدت زجاجة الساعة بالقرب من قدمي، هممت أن ألتقطها، ولكن جاءني هاتف بأن لا أفعل، فما الفائدة من الزجاجة، فالساعة ستؤخذ مني بعد إعدامي حتماً ولا بأس أن تؤخذ الساعة من دون زجاجة، وتركت الزجاجة بمكانها على الأرض، وتشاغلت عنها بموضوع آخر، ثم عدت إلى التفكير بالزجاجة، ورحت في حيرة هل التقطها من الأرض أم أتركها بمكانها؟ وهممت ثم عدلت أيضا، وهكذا بقيت في صراع بين إقدام وإحجام، متردداً بين الالتقاط، أو الترك، إلى أن حسمت الأمر وبحركة سريعة التقطت زجاجة الساعة ووضعتها في جيبي وحللت المشكلة.
وبينما نحن وقوف ننتظر المصير، و بعد أن راح الحراس

يجمعون الأوراق من الواقفين (المتهمين) إذا بطابور طويل من عمال المطاعم يدخلون الصالون الكبير يحملون (صواني)[1] مرصوصاً عليها أواني تحتوي على أصناف مختلفة من الأطعمة، يبلغ عددهم عشرة يسير الواحد وراء الآخر بنظام، توزعوا على الغرف الموجودة في الصالة ومرّ بعضهم من أمامي، كان يحمل أطباق الدجاج.. والقوزي والسمك والرز وأنواع المرق والسلطات وكل ما لذ وطاب وقفزت إلى ذهني قصة الخليفة العباسي الأول (السفاح) مع بقايا بني أمية، حينما دعاهم إلى وليمة، بعد أن أعطاهم الأمان والاطمئنان وبعد أن استقر بهم المقام، انتظاراً للطعام، أمر السيافين أن يقطعوا رقابهم، ثم مد السماط على جثثهم، وجلس هو وأصحابه يأكلون، والأجساد من تحتهم ترجرج، وتتماوج، تذكرت هذه الحادثة التي حدثنا عنها التأريخ والذي اخذ السفاح لقبه منها،ورحت اقارن بين الحالين فما هو الفرق،هناك سفاح جلس سفاحون على اجساد ضحاياه يأكل طعامه، وهنا في هذا القصر يجلس على أجساد ضحاياه يأكلون طعامهم ولكن الأجساد التي جزروها مجندلة في الحديقة ينظرون إليها ويأكلون، هذا ما جرى في العراق قديماً وما يجري فيه اليوم، كان الراديو يذيع بأعلى صوته خطاب أحمد حسن

1 ـ جمع صينية

البكر في مظاهرة يبدو أنها اتجهت إلى القصر الجمهوري مستنكرة المؤامرة، كان البكر يهدد ويتوعد، والهتافات تدوي وتصرخ وتطالب بالدم والانتقام، وتذكرت عبد الكريم قاسم (وهوسة)[1] إخواننا الشيوعيين المشهورة إعدم - إعدم لتكول ماعندي وكت إعدم... إعدم)[2] فضحكت وقلت أيضاً، ما أشبه الليلة بالبارحة فلماذا لا نقرأ التاريخ، وان قرأناه لا نتعظ منه، بدلاً من أن نضحك عليه كما نضحك عليه الآن، نظرت إلى يساري فرأيت ضابطاً لم أره من قبل يرتدي ملابس الميدان، برتبة عقيد ركن، يقف وكأنه متهم ويبدو أنه قد جيء به قبل قليل، فنظرت إليه جيداً فإذا به العقيد الركن كمال عبود وقد سبق لي وتعرفت عليه مع العقيد محمد سعيد الراوي. تنبّه لوجودي ونظر نحوي، ولكنه تجاهلني، فتجاهلته أنا بدوري، فالموقف لا يحتمل التعارف أو الكلام، وأثار انتباهي أنه انكب على ورقة كانت بيده راح يكتب فيها، وبعد لحظات جاءه ثلاثة أشخاص ووقفوا معه، فأخذ يقرأ عليهم بعض فقرات مما كتب بصوت خافت مشيراً إلى أرقام وتواريخ كان قد كتبها في الورقة، وسمعته يقول بعد أن أنهى القراءة أنه سبق أن أرسل برقية إلى الرئيس أحمد حسن البكر، وكرر اسمه أكثر من مرة، ثم أشار

---

1 ـ هتاف

2 ـ اعدم.. لا تقل ما عندي وقت. اعدم.

بالقلم تحت رقم وتاريخ معين. كان يتكلم مع الثلاثة بكل اطمئنان وثقة، ثم أخذوا الورقة منه ودخلوا إلى غرفة طه الجزراوي، وبقي يسترق النظر نحوي متسائلاً مع نفسه عن سر وجودي هنا في هذا المكان، وبعد دقائق عاد الأشخاص الثلاثة إلى كمال عبود وكانت أساريرهم منفرجة، فقد أمّنوا على قوله، وعلى كل ما جاء في الورقة التي كتبها، وقالوا له بصوت سمعته، (كل ما ذكرت صحيح) فانفرجت أساريره فرحاً ثم التفتوا إليه وقالوا له (تفضل روح) فوضع سدارته على رأسه، وانسحب من بيننا، وساروا معه إلى خارج القاعة ثم صافحهم قبل أن ينزل من السلالم، وتقله سيارة إلى عالم الأحياء، وعدت إلى نفسي وإلى هؤلاء المتاعيس ننتظر التصرف بمصيرنا. وبينما نحن وقوف إذ بشابين فتيين يقفان بجانبي، ولا يحملان سلاحاً قال أحدهما يسأل صاحبه مشيراً بيده نحوي (أتعرف هذا؟) فأجابه صاحبه (نعم أعرفه هذا فلان الفلاني) فقال له ثانية (هذا متآمر لأنه وزير..) فيجيبه صاحبه (هو وزير عدل.. مو؟)[1] فيجيبه (لا وزير عمل..) انتهى حوارهما ثم مرا من جانبي يتضاحكان وانصرفا. طالت وقفتنا، وكلما مر الزمن، كبر الأمل مقروناً بالقلق.. لا شك أن المحكمة مشغولة بقراءة الأوراق، والاعترافات، تتفحصها، وتستعرض أصحابها..

1 ـ مو: أليس كذلك

ولكن لم هذا التطويل، ألم تكن العقوبة مقررة مسبقاً لكل واحد منا؟.. ورحت أتململ، كنت متعجلاً أن أعرف مصيري حياً أو ميتاً حتى أستريح، ولم يطل تململي فها هو شاب طويل نحيف مقبل نحوي من وسط القاعة، إنه يقصدني.. رباه جاء رسول الموت، وقف الشاب بجانبي ثم سأل:

س ـ (أنت فلان الفلاني؟)

ج ـ (نعم)

س ـ (ماذا كنت تفعل أمس من الصباح حتى المساء؟)

ج ـ (صباحاً كنت في المحاكم ثم خرجت منها ومررت ببعض الأصدقاء وعدت ظهراً لداري، وخرجت منها عصراً مع ابني الصغير لعيادة الدكتور.. ومعي زوجتي ثم عدت للدار، ومساءً زرت صديقاً في داره)

س ـ (ما اسم هذا الشخص الذي زرته مساءً وأين يسكن؟)

ج ـ (إنه الأستاذ غالب العلوش ويسكن في المنصور)

س ـ (ألم تر العميد عبد الهادي الراوي؟)

ج ـ (لم أره أمس)

س ـ (أشكد صار لك ما شفته؟) كم من الزمن وأنت لم تره؟

ج ـ (أكثر من ستة أشهر)

س - (شنو علاقتك بعبد العادي الراوي؟) ما هي علاقتك؟

ج - (كنت محاميه في قضية).

س -(بس ؟) فقط؟

ج - (نعم أعرفه لأنه رجل معروف باتجاهه القومي وهو صديق)

س - (هل شفته أمس . . تره احنه كنا مراقبيك البارحة)

ج - (إني لم أره أمس وكما قلت لك رأيته منذ ستة أشهر عندما أفرج عنه وخرج من السجن)

س - (لعد وين كنت أمس بالليل . . ما رحت عنده بالمنصور).

ج - (لم أذهب إليه بدليل أنني أخذت من دار صديقي غالب العلوش، وان سيارتي لم تزل واقفة بباب داره للآن).

كان يسجل كل كلمة أقولها بورقة كان يحملها معه، ثم تركني وعاد من حيث أتي ودخل إلى غرفة جانبية، وأعدت مع نفسي كل الأسئلة التي وجهها لي وانشغل بالي بالعميد عبد الهادي الراوي إذ اعتقدت إنه موقوف وأنه الآن في مكان ما في قصر النهاية، وأن هذا التحقيق معي حوله يؤكد اعتقاله ورحت أردد (ربنا معك يا أبو زيد)، ومرت دقائق وإذا بالشاب الذي استجوبني مقبلاً من بعيد متجهاً نحوي ويحمل بيده أوراقاً وأشياء أخرى لم اتبينها، وعندما وصل قال لي: (هذه الأشياء

مالتك؟) نظرت إليها فإذا بها هويتي، وأوراقي التي أخذت مني بالأمس عند تفتيشي فقلت له (نعم مالتي) فقال (تفضل أخذها) فأخذتها منه ووضعتها في جيبي ثم أشار إلى الحارس الواقف بجانبي وقال له (هذا يطلع، خلي يركبوه سيارة توصله للشارع)[1] ثم التفت لي قائلاً (تفضل أستاذ روح وياه). ندت من شفتي كلمة الجلالة (الله لك الحمد يا رب العالمين ورب المظلومين). أخيراً وُهبت لي الحياة بعد أن كانت معلقة بشفتي هذا الشاب أو غيره.. ولم أصدق أنني أصبحت حراً وطليقاً وسأخرج من قصر النهاية أمشي على رجليّ، كما دخلت، إنها العناية الإلهية قد لطفت بي، وانتزعتني انتزاعاً من براثن الموت قبل أن يبتلعني، هل صحيح ما سمعت، هل أنا في حلم أم في يقظة؟ وتساءلت ومصير هؤلاء الواقفين؟ ترى هل علموا بإطلاق سراحي وأنني طليق؟ وحانت مني التفاتة إلى راهي الواقف بجانبي مشدوهاً لم يفهم ما دار بيني وبين الشاب، أو لم يسمع، إنه يعيش في حاله، وذهب الشاب، وتقدم مني الحارس قائلاً (تفضل أستاذ) وسار أمامي، وسرت وراءه أخطو نحو الحياة، نحو الحرية، حرصت وأنا في طريقي إلى الخروج أن ألقي نظرة أخيرة على زملائي نزلاء الزنزانات الواقفين ووجوههم نحو

1 ـ هذا يخرج.. أركبوه سيارة لحد الشارع.

الحائط انتظاراً للمصير، ودعوت لهم أن يرحمهم الله ويفرج كربهم، شعرت أنني قد خلقت من جديد وأنا الآن إنسان أخر عجبت كم يتغير تفكير الإنسان حسب الحال التي هو فيها، كنت قبل قليل في حال وأنا الآن في حال أخرى وهؤلاء المساكين بحال آخر، لم يكن فرحي بحريتي أكثر من حزني عليهم، وما عساي أفعل، كنت قبل لحظة واحداً منهم، أجلت فيهم نظري واحداً واحداً وقد التفت بعضهم نحوي وشيعني بنظرة فيها انكسار. رآني راهي أسير نحو الباب فلم يتمالك نفسه وصاح (وآني.. وآني أغاتي) الله كم هو نداء مؤلم ماذا أستطيع أن أصنع له أو لغيره وماذا كنت أستطيع أن أصنع لنفسي، ما هي إلا مشيئة الله، وإرادة الله، والتفت نحوه وإذا بوجهه أصفر شاحب، وقد رفع يديه مستنجداً بي فابتسمت له مشجعاً وأنا أقول، الله يفك أسرك، ويخلصك مما أنت فيه فادعوه عله سبحانه أن يجعل لك ولهؤلاء مخرجاً من حيث لا تحتسبون. وخرجت من باب القاعة، وبدأت أنزل السلالم وإذ بالشباب الذين على السلم يقفون ويقولون (ها أستاذ براءة؟ تهانينا) فأجبتهم (شكراً.. شكراً..) ولم أزد، وكررت في سري كلمة براءة نعم براءة، أن أجلي لم يحن بعد، ولو أردتم قتلي لقتلتموني رغم براءتي كما قتلتم غيري من الأبرياء، ووقفت أمام حديقة الموت، ،وأطلت

النظر فيها ، وأمر الحارس أحد الشبان المسلحين قائلاً له (توصل الأستاذ للشارع وترجع) فركض هذا إلى مرآب فيه العديد من السيارات وجاء بسيارة مرسيدس وفتح الحارس الباب الأمامي وقال لي (تفضل) فصعدت بين مصدق ومكذب ، ها أنا في السيارة ، إن السيارة تسير ، وتلف حول حديقة الموت ، ألقيت آخر نظرة عليها كانت خالية من الجثث فقد رُفعت وأرسلت إلى مثواها الأخير أنا الآن في طريقي إلى الحرية إلى عائلتي وأهلي ، وتخرج السيارة منْ باب قصر النهاية ، القصر المرعب ، قصر الموت ، وتصل السيارة إلى شارع جسر الخر ، وتختلط مع السيارات ، وأرى الحياة ، ان الناس من حولي يختلفون عن أولئك الناس حكام قصر النهاية فهؤلاء الناس الذين يمشون في الشارع بشر أما أولئك المتحكمون بقصر النهاية فليسوا من البشر وهؤلاء الناس في الشارع لا يعرفون ما يجري ويدور خلف أسوار ذلك القصر الذي يبعد أمتاراً عنهم ، أوقف الشاب السيارة ثم قال لي مبتسماً (تفضل أستاذ مع السلامة) . ها أنا الآن أرى هذا الشاب إنساناً رقيقاً ، طيباً ، لا يختلف عن الناس الطيبين ، ولكنه هناك في قصر النهاية شيء آخر قد يتحول إلى غول شرير يفقد آدميته . . ابتسمت له وقلت (شكراً أخي) ثم ترجلت من السيارة ، وانطلق بها مبتعداً عني ، وبقيت واقفاً على الرصيف

متسمراً لا أريد أن أتحرك . . أريد أن أشعر بحريتي المطلقة . . أريد أن أمارسها . . فأنا أقف الآن على الرصيف بملء حريتي ، إذاً فلأقف ما شئت من الوقت . . ورحت أنظر إلى الناس الذين امتلأ بهم الشارع . إنهم مسرعون كل في حال سبيله ، لاهون عما يدور خلف هذه االأسوار القريبة منهم ، فهناك عالم آخر يختلف عن عالمهم الصاخب ، هناك موت ، وهنا حياة . لا أدري كم طالت وقفتي ، وأنا لا أريد أن أتحرك عن الرصيف ورحت أردد مع نفسي بيت الشعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

مع الفارق طبعاً . . عجبت أمر هؤلاء الناس ألم يسمعوا بأمر عشرات القتلى من الأبرياء الذين أعدموا في بحر يوم أو بعض يوم . . ما يعنيهم إذاً؟ بمَ هم مشغولون؟ وراودتني رغبة بأن أصيح بأعلى صوتي (يا أيها الناس تيقظوا كفى نوماً ، وسباتاً أيها الناس ، افعلوا شيئاً ضد الظلم والطغيان . أيها الناس أنا خارج الآن من قصر النهاية وتركت هناك أناساً أبرياء يواجهون الموت . .) وشعرت بحاجتي إلى البكاء . . كيف أبكي ، والناس من حولي ، فماذا تقول عني ؟ أمجنون هذا يحدث نفسه ويبكي؟ لم أشعر إلا وسيارة تقف غير بعيدة عني ، ويترجل منها رجل

يقترب مني ويلوح بيده ويصيح (ها أبو غسان شو واكف هنا؟) انتبهت من شرودي فإذا به الأخ الصديق موسى صبار المحامي كان في طريقه إلى النجف، لمحني واقفاً على الرصيف، أجبته (ماكو شي أبو عمران آني انتظر تكسي) وكأن جوابي لم يقنعه، فمنظري، وشكلي يساعدان علي ذلك، فالشعر منكوش كما طال شعر اللحية، فسأل ثانية (أنت متأكد متريد شي مساعده؟) فأجبته بابتسامة (شكراً أبو عمران تفضل روح هسه يجي تكسي وأركب) فسلم ثم ذهب في حال سبيله، ونزلت من الرصيف وبدأت أمشي في الشارع أنتظر سيارة تقلني إلى البيت وتحملني إلى الأهل الذين ينتظرون عودتي حياً أو ميتاً، كان الوقت بعد الغروب بقليل ورحت أفكر وأنا في طريقي إلى البيت تُرى كيف أدخل على أهلي؟ هل أفاجئهم بدخولي؟ إن المفاجأة قد تقضي على والدتي، فهي مريضة. . هل أكلمهم تلفونياً من الشارع تمهيداً لدخولي عليهم حتى تذهب المفاجأة بردودها ومضاعفاتها! وأفقت على صوت السائق يسأل (أي شارع في الصليخ أستاذ. . إحنه بالصليخ) نظرت فإذا بي بالقرب من الدار، فأشرت عليه بالوقوف نزلت أتمشى. . وجدت باب الحديقة مفتوحاً، دخلت دون أن يشعر بي أحد واتجهت إلى الباب الداخلي، فلمحتني ابنة أختي (ابتسام) فصاحت خالي. . خالي. . بأعلى

صوتها بفرح واندهاش، وإذا بالجميع يهرعون نحوي متسابقين، هذا يقبلني من وجهي، ومن رأسي، ومن صدري، وأنا مذهول، وكأني مخدر، وأنظر في وجوههم أفتش عن أمي وإذا بها مقبلة بمشيتها الثقيلة تحمل في يدها القرآن ورفعت يديها إلى السماء، وراحت تدعو، ولم أتمالك نفسي، فارتميت على صدرها، واختلطت دموعنا، وعلا نحيبها، وبكى على بكائها الجميع، كان الله في عون الأمهات الثكلى، واستقبلني ابن خالي أبو إحسان، ولم يصدق عينيه فأخذ يقفز من الفرح، رغم ضخامة حجمه وثقل وزنه، فوقع على الصوبة (المدفأة) فانكسرت، وجُرحت رجله، لقد أنساه الفرح ألم الجرح، وأخذ يلطم على رأسه دون شعور، وراح الجميع بين بكاء وضحك، وتهاويت على المقعد وبدأت أتفحص الوجوه، إنها شاحبة لم تعرف النوم والراحة، والتف حولي أطفالي الأربعة أتحسس وجوههم وأمسح على رؤوسهم كأنهم يتامى كانوا قبل ساعة كذلك وها هو أبوهم معهم، وبينهم، وانهارت قواي من الضعف والتعب فقد كنت متماسكاً وأنا في قصر النهاية أما هنا وأنا بين أهلي ووسط عائلتي فقد تهاوت قواي مأخوذاً بالجو العاطفي فقد أثر بي غاية الأثر، كنت شارداً مشغول البال عند أولئك الذين تركتهم في قصر النهاية، طلبت راديو لأسمع

أخبارهم ماذا سيذيع عنهم، وجلس الجميع حولي سكون، كأنهم يترقبون ما أترقب من أخبار، ولم يسألني أحد عن الحكاية فالحكاية أمرها يطول، فكل غايتهم أن أعود سالماً وها أنا ذا بينهم ورحت أستمع للراديو وكان يبث موسيقى عسكرية انتظاراً لما يرده من أخبار من قصر النهاية، وتوقف بث الموسيقى، فأصخت السمع، والكل معي حتى الأطفال هبط عليهم سكون عجيب كأنهم يستشعرون خطورة الأمر. . وطلع المذيع ليعلن عن وجبة جديدة تم إعدامها الآن. . وراح يعدد الأسماء. . ونطق اسم المرحوم راهي الحاج عبد الواحد سكر وسقط الراديو من يدي، وحزنت أشد الحزن، رحمه الله، ذهبت توسلاته واستعطافاته كلها أدراج الرياح، لا شك عندي إن إعدامه أمر "مقرر" سلفاً، هذه إرادة الحزب، تخويفاً لكل القبائل والعشائر، وتذكيراً بنفس المصير. . وكأني أسمع صوت حارس الزنزانات يعلن بصوته الكريه (وهذه وجبة أخرى من الخونة إلى مزبلة التاريخ) ويعقبها بقهقهة عالية، فأرتجفت، واقشعر بدني، فرحت واقفاً كالملسوع، وصاحت أختي أم إحسان (ها إشبيك أبو سها؟) نظرت إليها دون جواب. . بماذا أجيبها؟ وضحكت في وجهها وهززت رأسي قائلاً (ماكو شي حاجة بسيطة). شعرت بحاجتي إلى النوم، ولكنه لم يزرني، وبقيت مستيقظاً أفكر بالباقين،

فالمحاكمات لم تنته بعد، وهناك بقية من معتقلي قصر النهاية ما زالوا فيه[1] وانتشر خبر اعتقالي بين الناس، وجاءني بعض الأقرباء، والأصدقاء، والكل يريد أن يعرف القضية فآثرت السكوت إلى أن يحين الحين، فأكتب بأمانة ما رأيت، وما سمعت، دون تجني أو مبالغة، ولا تهويل وأضعه بين الناس، من عراقيين وغير عراقيين، ليعرفوا الحقيقة كاملة من واحد عاش أحداثها بكل جوارحه، وحواسه وعواطفه وخلجات قلبه، وكان الله سبحانه قد وهبه القوة والاحتمال فعاش أربع وعشرين ساعة من أرهب الساعات، وأقسى الساعات، وأمر الساعات، عشت كل دقيقة منها بوعي كامل، وبعقل متفتح. . أربع وعشرين ساعة نُحر فيها سبع وخمسين ذبيحة، لم أشك أن كل من جيء به إلى قصر النهاية كان أمر إعدامه معداً سلفاً، وأن لم يعدم بعضهم، فإن ظروفاً جدّت، واعتبارات حالت، دون تنفيذ الإعدام، وأنا واحد ممن خدمته الظروف والاعتبارات فأطلق سراحي، وأن حديث الشاب الذي أشار إلى راهي في تلك الليلة (ونحن متجهون إلى الزنزانات) دليل أكيد على أن إعدام راهي كان مقرراً سلفاً. . حينما وصفه بالمجرم الإقطاعي . . أقول أن

---

1 - استمر تنفيذ الإعدامات في قصر النهاية حتى بلغ عدد المعدومين سبعة وخمسين شهيداً

الإعدامات كانت مقررة وما يؤكد ذلك سرعة تنفيذ عمليات الإعدام، حيث كان الفاصل الزمني بين إعدام الوجبة، والأخرى قصيراً، وكأن السلطة في صراع مع الزمن. قبل أن يفيق العالم على حقيقة ما يجري في العراق، وعلمت إن قيادة حزب البعث كانت مقيمة في قصر النهاية، وحينما تريد أن تتسلى، وتكسر الملل تحضر أحد المتهمين، ويوجهون إليه الإهانات، ويتسلون بتعذيبه بأيديهم، ثم يبلغونه أنهم سيعدمونه، وهذا ما يتحقق بعد حين، فقد فعلوا مع المرحوم جابر حسن حداد نفس الشيء، إذ أحضروه أمامهم، وبدءوا يعذبونه بالخناجر، والسكاكين، ويتلذذون بطعنه في أماكن مختلفة من جسمه ويتنافسون على قطع أذنه، أو بقر بطنه، وكان الرجل صابراً ويشتمهم، ويقول لهم (إني شهيد، ويشرفني أن شهادتي على أيديكم) إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة، رحمه الله بين أيدي الزبانية، وقد علمت أن الحزب الشيوعي العراقي، كان قد لام حزب البعث على سرعة تنفيذ الإعدامات، فقد كان يرى (الحزب الشيوعي) ان تتم المحاكمات في الشوارع، والساحات العامة وبمدة زمنية أطول وأن ينال المجرمون جزاءهم، بتعليقهم في الساحات العامة.

ويظل سؤال وهو: لماذا لم أعدم أنا مع المعدومين؟ وهذا سؤال حرت في الاهتداء إلى الجواب الشافي له، كنت أظن قبلاً

أن الحزب كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لقتلي، انتظاراً لظرف أكثر ملاءمة، وأن أخذي إلى قصر النهاية كي أشاهد بعيني الإعدامات هناك، لإرهابنا وتخويفنا نحن القوميين.

ولكني علمت بشكل قاطع بعد حين، ان حزب البعث كان ينوي التخلص من جملة من القوميين الوحدويين في تلك الليلة

بحجة أن هؤلاء القوميين قد تحركوا للتآمر على الحزب والدولة مستغلين انشغال السلطة بمطاردة رؤوس المؤامرة الرجعية ولكن هذه السلطة لم تنجح إلا في اعتقالي فقط، في حين توارى الآخرون من القوميين، واختفوا، مدنيين وعسكريين، فأسقط في أيدي السلطة، ولم تعد تستطيع تنفيذ مخطط تصفية القوميين، فلو أنها نجحت في اعتقال عدد كاف منهم لبادرت إلى إعدامهم دون إبطاء، بتهمة محاولة انقلابية هذا ما كانت قد خططت له قيادة حزب البعث ولكن الأقدار شاءت غير ذلك "وتقدرون فتضحك الأقدار" إذ لم يقع بالمصيدة غيري، وإعدامي لوحدي مع زمرة المؤامرة الرجعية غير مبرر، وغير نافع من وجهة نظرهم، فأطلق سراحي انتظاراً لتدبير "مؤامرة" قومية مزعومة تنوشني وأمثالي، وهذا ما حصل فعلاً، إذ حصدت "المؤامرة المزيفة" قيادات قومية وبعثية تخلصوا منها كما هو معروف،

وهكذا وجدتني أحيا من جديد، حياة أحلى ما فيها مر.

وما زالت وقائع، وأحداث، وشخوص، قصر النهاية، عالقة بذهني حتى الآن.

تتمات

ومن أجل أن يحيط القارئ الكريم بكل جوانب الموضوع أسجل الآتي

1 - اعدم زوج سعدية صالح جبر المدعو حسن الخفاف عصر يوم 21/ 1/ 970

2 - جيء بالضابط عبد الوهاب عبد الرحمن الداوود (أخو إبراهيم عبد الرحمن الداوود) آمر الحرس الجمهوري ومنفذ انقلاب 17 تموز 1968 إلى قصر النهاية عصر يوم 21/ 1/ 970 وأعدم أمامنا في حديقة القصر

3 - حكم على المحامي محسن الدوري بالأشغال الشاقة ولم يعدم.

4 - سلمت جثة المرحوم راهي العبد الواحد آل سكر بعد إعدامه صعقاً بالتيار الكهربائي مع التأكيد بعدم وجود أي رجل في تشييعه ودفنه، لذا تولت النساء من آل فتله وغيرها من العشائر مهمة تشييع جنازته فدخلت النجف مئات من النسوة متشحات بالسواد ويرتفع صراخهن إلى عنان السماء يحملن جثمان راهي وقمن بدفنه نيابة عن الرجال وحسب رغبة الحكومة وتهديدها.

5 ـ التقيت بعد أيام بالأخ شاكر مدحت السعود في ساحة الغريري في شارع الرشيد عند خروجي من مكتبي وبعد أن تعانقنا أخبرني أن (الجماعة) في قصر النهاية استضافوه إلى ساعة متأخرة من الليل وتعرض إلى صنوف الاعتداء والاستهزاء والسخرية ثم أطلق سراحه.

6 ـ سافر في 22/ 1/ 70 كل من حردان التكريتي (وزير الدفاع) وشفيق الكمالي (وزير الثقافة) إلى بيروت وهناك عقدا مؤتمراً صحفياً لشرح أبعاد (المؤامرة) المزعومة وتم عرض بعض الأسلحة من رشاشات ومسدسات باعتبار أنها الأدلة الجرمية بعد فشل المؤامرة. . وذلك تطويقا لردود الفعل الكثيرة التي استهجنت عمليات الإعدامات وأبعادها وصداها في الداخل والخارج.

7 ـ قصر النهاية: هو قصر الرحاب الذي كان يسكنه الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق، وقد سمي بقصر النهاية لأنه شهد نهاية العهد الملكي في 14 تموز 1958 إذ قتل فيه الملك فيصل الثاني وخاله عبد الإله وجدته الملكة نفيسة (ام عبد الإله) وبعض الأميرات. .

واستعمل كمعتقل بعد المؤامرة ضد عبد الكريم قاسم في 8 شباط 1963 وجرت تحقيقات وتعذيب واغتيال . . واستعمل في فترة زمنية مقراً لمديرية السياحة العامة . . ولكنه تحول بعد انقلاب

البعث في 17/ 7/ 1968 إلى معتقل ضم العديد من المعتقلين ومن كل الجهات بعد أن بنيت فيه زنزانات كثيرة ومن أشهر من نزل فيه عبد الرحمن البزاز (رئيس وزارة سابق) وطاهر يحيى (رئيس وزراء سابق) واللواء الركن عبد العزيز العقيلي (وزير دفاع سابق) وفؤاد الركابي (أول أمين سر قيادة قطرية في العراق) وغيرهم كثيرون وذاع صيت هذا القصر واكتسب شهرته مما كان يجري فيه من شتى أنواع وصنوف التعذيب الجسدي والنفسي بأجهزة فنية متقدمة تم استيرادها من ألمانيا (الشرقية) لهذا الغرض ويقوم على التعذيب جهاز متخصص متدرب جيداً على وسائل التعذيب الحديثة.



ملاحظة

كان يأخذ الكثير من تفكيري وأنا في قصر النهاية، أمر أحمد حسن البكر "رئيس الجمهورية" حيث كنت اسمع عنه، إنه رجل متدين، يؤدي الفرائض بأوقاتها، ويصوم رمضان، كيف يبرر «شرعياً» ما يجري في قصر النهاية من قتل محرم شرعاً.. وأتساءل، ألم يسمع بقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) «والذي بعث محمداً بالحق لو أن جدياً هلك بشط الفرات لخشيت أن يطالب الله به عمر».

ثم ألم يقرأ القرآن وفيه هذه الآية «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» صدق الله العظيم

إنه تدين كاذب، فقد أعمى السلطان بصره وبصيرته.

ملاحظة هامة

معلومات الحزب الشيوعي العراقي عن مؤامرة «20 ـ 21» كانون الثاني سنة 1970 جاء في مذكرات بهاء الدين نوري سكرتير الحزب الشيوعي السابق، والشيوعي المعروف الطبعة الثانية آذار 1995 كردستان العراق في الصفحة "298" مايلي"في يوم من أيام كانون الثاني 1970 قدمت لنا السفارة السوفيتية في بغداد معلومات تفصيلية حول خطة محكمة للقيام بانقلاب عسكري، وسينطلق اللواء العاشر المدرع من ثكنة عسكرية كانت في الماضي ميداناً لسباق الخيل بجانب حي المشتل، وكان الضابط المتقاعد عبد الغني الراوي المشارك النشط في انقلاب سنة 1963، والذي دخل بعدئذ في خلافات مع البعثيين من أنشط المساهمين في الطبخة الانقلابية الجديدة: أرسل مكرم الطالباني موفداً من قيادة ح، ش، ع "الحزب الشيوعي العراقي" إلى رئيس الدولة أحمد حسن البكر حاملاً إليه الخبر بتفاصيله التي كانت تقضي باحتلال مبنى الإذاعة والتلفزة، والقصر الجمهوري، تحت جنح الظلام، ويبدو أن الحكام البعثيين لم يصدقوا تصديقاً تاماً في بادئ الأمر، لكنهم اتخذوا التدابير الفورية من باب الاحتياط، وفي ساعة الصفر المحددة بدأ التمرد من الثكنة المشار إليها، وجرت

مصادمات، وأحبطت المحاولة الانقلابية لأنها كانت قد فقدت عنصر الكتمان والمباغتة، ويتراءى لي أن الانقلاب كان مضموناً لو لم يحط البعثيون علماً بالأمر قبل وقوعه.. وفي اليوم التالي لإحباط المحاولة الانقلابية استدعى البكر الطالباني إلى القصر الجمهوري من جديد وشكر ح، ش، ع وقال له ما معناه لن أنسى ما حييت هذا الجميل لقد أنقذنا ح، ش، ع من السقوط الموشك، لن تكون هذه شوارب رجل، ومد أصابعه لشواربه ولن يكون لي شرف عسكري إذا قبلت بعد اليوم بأي اضطهاد للشيوعيين في ظل نظامنا هذا).

ثم يضيف بهاء الدين نوري قائلاً: (قطع الرئيس البكر هذا التعهد على نفسه في كانون الثاني وبعد ذلك بشهرين صدر بيان الحادي عشر من آذار، واقترن مباشرة ببدء الهجوم على الشيوعيين واغتيال المناضل الشيوعي البارز محمد الخضري، وهكذا ثبت في غضون بضعة أسابيع بأن الأب القائد، كما كان البكر يلقب في تلك الأيام، لم يكن صاحب كلمة، ولم يكن له أي شرف عسكري..)

هذا ما جاء بمذكرات الأستاذ بهاء الدين نوري عن المؤامرة، وليس لي تعليق عليها، وإن كنت أنصح بإعادة قراءتها.

كلمة لا بد منها

جاء حزب البعث إلى السلطة في 17/ 7/ 1968 نتيجة تحالفات، وتربيطات، كما هو معروف، ثم استخلص الحكم لـه منفرداً في 30/ 7/ 1968 ولكي يحتفظ بالحكم ولا يكـرر إضاعته كما حدث سنة 1963، كان عليه أن يقضي وبسرعة، على كل خصم يتوجس منه خيفة أو يتحسس منه خطراً، حتى لو كان شخصاً واحداً، وحتى يتفرغ لتصفية هؤلاء الخصوم، اضطر تكتيكياً، أن يجد حلاً سريعاً للمشاكل الملحة.. وأولها مشكلة الأكراد التي قد تستنزف طاقاته، كما استنزفت حكومات سابقة فشلت في إيجاد الحل المقبول للأخوة الأكراد.. فكان ميثاق 11 آذار سنة 1970 ثم أقام مع الحزب الشيوعي العراقي، جبهة وطنية وأشركهم في الحكم وبذلك ضمن مؤقتاً الأكراد والشيوعيين.

وفي قضية تصفية الخصوم، لم يرهق حزب البعث نفسه في اختراع الوسيلة الناجعة، فقد سلك درباً كان قد عبده طغاة وجبابرة كانوا هم السباقين في اختراع فنون إرسال الخصوم إلى الموت والتخلص منهم.. أمثال ستالين، وهتلر، وموسوليني، سالازار، بول بوت، وأضرابهم عن طريق تدبير الانقلابات المفبركة.. وتتم تصفية الخصوم العقائديين أو حتى رفاق الحزب

المنافسين أو المتطلعين بتهمة (التحريفية).

كان أول ضحايا التصفيات الجسدية الدكتور ناصر الحاني[1] حيث وجد مقتولاً ومرمياً، في صدر قناة الجيش في بغداد.. ثم أعقبه اللواء الركن عبد الكريم مصطفى نصرت[2] حيث اغتيل في داره وأخذت تتوالى عمليات التصفيات، فشملت فؤاد الركابي[3] حيث دبرت له تهمة (اختلاس) وفي سجن بعقوبة تم تدبير عملية ذبحه بسكين، بعد أن أدخل القاتل داخل السجن لإتمام عملية الذبح.

وحتى البعثيين، لم يسلموا من عمليات التصفية الجسدية.. فكل من يتمرد، أو يتململ، أو يعترض يكون مصيره التصفية.. فقد تمت تصفية عبد الوهاب كريم[4] بتدبير حادث سيارة في طريق الحلة.. وتصفية عبد الكريم الشيخلي[5] عندما تصدى له القاتل في الشارع عندما كان الشيخلي متجهاً إلى كشك ليدفع فاتورة الكهرباء، وتمت تصفية عبد الرزاق النايف[6] في لندن،

1 ـ وزير الخارجية في 17/7، ثم أعفي وعُين مستشاراً في القصر الجمهوري

2 ـ كان منشقاً عن حزب البعث (قيادة اليمين)

3 ـ أول سكرتير قيادة بعثية في العراق

4 ـ عضو قيادة قطرية.

5 ـ وزير خارجية سابق.

6 ـ رئيس وزراء انقلاب 17 تموز سنة 1968.

وتمت تصفية العلامة السيد مهدي الحكيم[1] في السودان وتمت تصفية طالب السهيل[2] في بيروت، وتمت تصفية محمد الخضري[3] العضو القيادي في الحزب الشيوعي العراقي وإبان إقامة الحلف مع الحزب الحاكم، وتمت تصفية حردان التكريتي[4] وزكي عبد الوهاب[5] إن قائمة التصفيات الجسدية طويلة شملت مختلف الاتجاهات عراقيين وغير عراقيين، عرباً وأكراداً وفلسطينين، وتمت التصفيات داخل العراق وخارجه وما ذكرت إلا مجرد أمثلة.

وكان آخر قوائم التصفيات الجسدية قد ضمت رجال دين وعلما أعلام أمثال الغروي، والبروجردي، ونجل العلامة الخوئي، وآخرهم العلامة السيد محمد صادق الصدر.. وقد سبقه في التصفية الجسدية عام 1980 ابن عمه العلامة السيد محمد باقر الصدر، وأخته بنت الهدي، والقائمة كما قلت طويلة وستطول إذا ما استمر هذا الحكم جاثماً على صدر الشعب

1 ـ ابن العلامة المرجع السيد محسن الحكيم.

2 ـ من مشايخ آل تميم في العراق

3 ـ عضو قيادي في الحزب الشيوعي العراقي.

4 ـ تولى مناصب عسكرية هامة.

5 ـ من الوطنيين الديمقراطيين المعروفين.

العراقي،

وما يهمنا هنا هو القول أن حزب البعث من أجل أن يظل في السلطة لجأ إلى التصفيات.. تصفيات كل الخصوم وذلك عن طريق (فبركة) الانقلابات.. فكانت أول (مؤامرة مفبركة) سنة 1968 ولم يمر شهران على انقلاب 17/ 7/ وذلك من أجل التخلص من عناصر (قومية) عسكرية ومدنية، فجيء بشاب اسمه (أياد الأعرجي وكان بعثياً مرتداً ثم أعيد للحزب) لتوريط هذه العناصر القومية واستطاع أن يخدع أحدهم (العميد شرطة صبحي مدحت السعود) من أنه مسافر إلى دمشق، وإنه مستعد أن يحمل رسالة منه إلى صديقه (عبد الطيف الكمالي) الملحق الصحفي العراقي في دمشق فذهب أياد الأعرجي برسالة العميد صبحي وكانت عباراتها عامة وشخصية وعاد من دمشق يحمل كارتاً من الكمالي، فيه تحية وشكر ليس غير، كانت الرسالة المسافرة والكارت العائد قد صورا من قبل قيادة حزب البعث.. استعملا بعد ذلك كأداة جرمية، وتم اعتقال (العميد المتقاعد عبد الهادي الراوي)[1] وصبحي السعود ومجموعة من عسكريين، وبعض المتقاعدين، كما اعتقل بعض المدنيين بتهمة (انقلاب عسكري) والجميل في الموضوع أن الجميع قد اعتقلوا في

1 - وزير زراعة وشباب سابق.

دورهم، وشاءت الأقدار، أن أكون محامياً عن المتهمين وأتولى الدفاع عنهم أمام المجلس العرفي العسكري برئاسة العميد عبد الوهاب القيسي.. وبعد عقد جلستين أو ثلاثة تأكد لرئيس المجلس أن القضية مفبركة، وأن ليس هناك مؤامرة.. وقبل أن يصدر قراره بالإفراج عن المتهمين، سُحبت إضبارة الدعوى منه، وأحيلت القضية إلى محكمة الثورة[1] وأصدرت قرارها بسجن عبد الهادي الراوي وبعض العسكريين.. وأطلق سراح الباقين، ولم يكن الظرف يسمح أو يستجيب لإصدار أحكام الإعدامات في هذه القضية بعد أن بان زيفها وانكشفت ضعف خيوطها، انتظاراً لوقت أكثر ملائمة.

وفي عام 1969 (فُبركت) مؤامرة (عبد الحسين جيته) فأعدم، ومعه النائب السابق (عبد الهادي البجاري) وآخرون لتخويف الشيعة والتجار ومن أجل السيطرة على ما يجري في الشارع من خروقات هنا وهناك، وفي 20 و21/ 1/ 1970 (فُبركت) مؤامرة أخذت إبعاداً واسعة وراح ضحيتها عدد كبير ألصقت بـ (عبد الغني الراوي) ولم يكن في العراق أصلاً، ولم تتحرك أية قطعة عسكرية للقيام بانقلاب، إذ لم يكن لهذه القطعة العسكرية أي وجود بالأساس.. وإلا، لتم اعتقال ضباطها المتآمرين

1 ـ أعضاؤها من الحزبيين ويشرف عليها القصر الجمهوري.

وأفرادها، وأسلحتها، وجميع أدلتها الثبوتية.

والعسكريون الذين تم إعدامهم، كان أغلبهم متقاعدين وخارج الخدمة، كرشيد الجنابي، وجابر حسن حداد. . أو تم إعدامهم لتصفية حسابات، كما لاحظنا في قضية الضابط عبد الستار العبودي الذي أعدم لأنه علق بكلمة (سخيف) على أمر عسكري.

أما العناصر المدنية فكان إعدامهم يخدم استراتيجية حزب البعث من أجل الهيمنة على العشائر والقبائل ذات النفوذ وإرهابها كما رأينا في إعدام راهي العبد الواحد الحاج سكر من شيوخ قبيلة (آل فتلة)، القبيلة العربية المعروفة في جنوب العراق، وحتى القيادات البعثية غير المرغوب بها، أو يتخوف منها، تم تصفيتها بتهمة (التآمر) المفبرك، فبعد توقيع الميثاق القومي مع سوريا عام 1979 لإقامة وحدة معها، قام صدام حسين بعد استلامه السلطة من أحمد حسن البكر بإعدام (22) قائد حزبي كبير، على رأسهم عبد الخالق السامرائي، وعدنان الحمداني، ومحمد محجوب، وغانم عبد الجليل، ومحمد عايش، وعبد الحسين المشهدي وآخرون.

وتم التخلص أيضاً عن طريق (المؤامرة المفبركة) من الدكتور راجي عباس التكريتي وأولاد مخلص، مع عناصر مدنية

وعسكرية، تم إعدامهم جميعاً بحجة القيام بمؤامرة ضد نظام الحكم.

واستمرت عمليات تصفية الخصوم عن طريق تدبير وافتعال هذه المؤامرات المفبركة، منذ أن استلم حزب البعث السلطة في العراق حتى الآن، وقد نجح إلى حد ما في الهيمنة وضبط الأمور وراح يضيق الحبل حتى على الأقربين منه[1] سالكاً الطريق المعبد الذي سار عليه السابقون، من الطغاة الجبابرة والمجرمين.

ويلاحظ المراقب المتتبع أن النظام العراقي قد تفنن في كيفية إخراج هذه المؤامرات المفبركة، والإعلان عنها، وحسب الظرف، والحالة السياسية، ففي الوقت الذي كان في أوليات حكمه لا يحرص على إخفاء (المؤامرة) بل يبادر وبكل وسائل إعلامه الخاصة به أو الصديقة له إلى الإعلان عنها بضجيج وصخب وذلك من خلال الإعلان عن تشكيل المحاكم الخاصة وإذاعة أسماء المتهمين وعمليات الإعدام.. لجأ بعدها إلى أسلوب آخر، ألا وهو مجرد الإعلان عن اكتشاف المؤامرة فقط دون كشف الأسماء، والتفاصيل المتعلقة بالقائمين عليها أو الأحكام الصادرة بحقهم وذلك تلافياً لردود الأفعال السلبية التي راحت تنعكس على النظام داخلاً وخارجاً، والآن وفي الحالة

---

1 ـ حسين كامل وأخوه صدام كامل وأبوهما

التي وضع نظام العراق نفسه فيها جراء غزوة الكويت وتداعياتها، وحالة العراق، وشعبه المحاصر الجائع المضطهد لم يعد النظام يعلن حتى عن وجود (مؤامرة مفبركة) بل يقوم بتصفية من يشك في ولائهم من عسكريين ومدنيين وحزبيين وغير حزبيين سراً.. (لا من شاف ولا من دري)

لماذا ليلة الهرير: فالهرير لغة.. من هرَّ ـ الكلب صات بدون نباح من شدة البرد أو صوت الكلب دون نباح من شدة البرد وليلة الهرير أخذت أسمها في التاريخ الإسلامي من معركة صفين بين الإمام علي (كرم الله وجهه) ومعاوية بن أبي سفيان، فقد كان البرد في تلك الليلة قارصاً إلى الحد الذي كان يسمع للجنود هرير كهرير الكلب.. تلك الليلة التي نصح عمرو بن العاص في صباحها معاوية بن أبي سفيان برفع المصاحف بعد أن كاد جيشه أن ينهزم، وقد أحدث حمل المصاحف بلبلة وفتنة في جيش الإمام علي بعد أن أصرّ بعض قادة جيشه على قبول التحكيم، وعبثاً حاول الإمام إقناعهم بأن العملية ما هي إلا حيلة ومكيدة وقال كلمته المشهورة أمام شعار (لا حكم إلا لله) إنها كلمة حق يراد بها باطل.. وباقي القصة معروفة.

وبخصوص ليلتنا في قصر النهاية في 20 ـ21/ 1/ 1970 فقد كان البرد قارصاً أيضاً ولا يحتمل وزاد من قسوته أن الزنزانات التي

أودعنا فيها كانت عبارة عن ثلاجات فسقوفها وجدرانها وأرضها مشبعة بالرطوبة وكلها مسلطة على شاغلها فكيف لا يهر كالكلب . . وقد يكون الكلب أحسن حالاً إذا ما عثر على مكان يقيه من شدة البرد ما دام حراً طليقاً . . أما نزلاء تلك الليلة الذين حلوا فيها خفافاً كملابسهم فلا تثريب عليهم لو سمع لهم هرير.

أما أنا فقد كنت أهر من شدة البرد كما يهر الكلب تماماً، وأنا قابع في تلك الزنزانة، في تلك الليلة من ليالي شهر كانون.

فهرس

- هرب إلى خارج العراق بعد فشل ثورة الشواف في 1959/3/8.
- انتمى سنة 1961 إلى الحزب العربي الاشتراكي الذي تأسس في العراق.
- حصل على دبلوم شريعة إسلامية من جامعة القاهرة سنة 1961.
- عاد إلى العراق سنة 1963 بعد انقلاب 8 شباط سنة 1963.
- انتخب عضواً في المكتب السياسي ورئيس المكتب القيادي (مكتب التنظيم) للحزب العربي الاشتراكي.
- مثل الحزب في اللجنة التنفيذية العليا (عددها 12) وتمثل كل الحركات القومية لوضع ميثاق الاتحاد الاشتراكي العربي سنة 1964.
- استوزر سنة 1965 في عهد (عبد السلام عارف) وزيراً للشؤون البلدية والقروية في وزارة طاهر يحيى واستقال بعد أربعين يوماً احتجاجاً على عدم تمثيل باقي القوى القومية في الوزارة.
- استوزر سنة 1967 في عهد (عبد الرحمن عارف) وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية في وزارة طاهر يحيى واستقال بعد ستة أشهر مع ستة من زملائه في الوزراء طالبين المزيد من الانفتاح الديمقراطي ومحاربة الفساد في الحكم.
- اعتقل صبيحة 1968/7/17.
- اشترك في تشكيل (الطلائع الثورية) لمحاربة النظام الجديد.
- اعتقل أكثر من مرة وآخرها في 1970/1/20 ضمن مجموعة كبيرة بتهمة تآمر، وأعدم 57 منهم ظلماً وعدواناً.
- ترك العراق في 970/7/16 وأقام في القاهرة منذ ذلك التاريخ وله إسهامات كثيرة في صفوف المعارضة العراقية.
- اشترك مع بعض الأحزاب في تشكيل (التجمع القومي الديمقراطي).
- له الكثير من المقالات في الصحافة العربية.. وله كراس «مقالات ممنوعة» وكتاب «ليلة الهرير في قصر النهاية».

ليلة الهرير في قصر النهاية

حرصت، على مقدار ما وعت ذاكرتي، أن تكون «ليلة الهرير» سجلاً واقعياً واميناً، لكل ما سمعت، وما رأيتُ، من أحداث عشتها وعايشتها، وقعت، منذ أن اعتقلت، إلى ساعة خروجي من قصر النهاية، وقد يجد القارئ الكريم في سرد بعض وقائعها تطويلاً أو حواراً (لا لزوم له. .) أما بالنسبة لي. . كانت الكلمة والحركة، والالتفاتة، وحتى الهمسة، لها عندي (أنا القابع في قصر النهاية) معنى ومدلولات أثّرت بكل من ساقه حظه العاثر إلى دخول هذا القصر المشؤوم، وخرج منه، أما إلى القبر، أو إلى الحياة التعيسة.

كان همي، أن أضع القارئ الكريم في أجواء قصر النهاية، حتى لو أسرفت في إيراد تفاصيل قد لا تستحق التسجيل. . فبكاء الطفل المتواصل، واستنجاد أمه لإسعافه بماء ساخن، ووقع أقدام الحارس الليلي، وجملته المعتادة، وقهقهته الكريهة، بعد إعدام كل وجبة، أو دخول وخروج حراس مدججين بالسلاح وأيديهم على الزناد، أو حالة المرحوم راهي العبد الواحد، كل ذلك ليس مجرد تفاصيل؛ فمنها ومن غيرها من فعاليات، قمت برصدها وتسجيلها، أضفت على مسرح الحدث أجواء كابية، أعطت صورة حقيقة صادقة. . أردت أن أحيط القارئ الكريم بكل صغيرة وكبيرة، تحصلت عليها، خلال الأربع والعشرين ساعة التي عشتها داخل قصر النهاية. . ولما كانت اللهجة العراقية هي المستعملة في الحوارات والأسئلة والأجوبة والتعليق، ارتأيت أن يتم التسجيل بها، لتكون أكثر صدقاً في تصوير الحالة.

«ليلة الهرير» ليست عملاً روائياً يخضع للحبكة والصنعة، ويسمح (للروائي) أن يزوقه بأسلوب أدبي وفني، «ليلة الهرير» ما هي إلا شريط مسجل، وآلة تصوير.

المؤلف

أحمد الحبوبي

ليلة الهرير في قصر النهاية

تصميم الغلاف: طالب الداوود

أدد